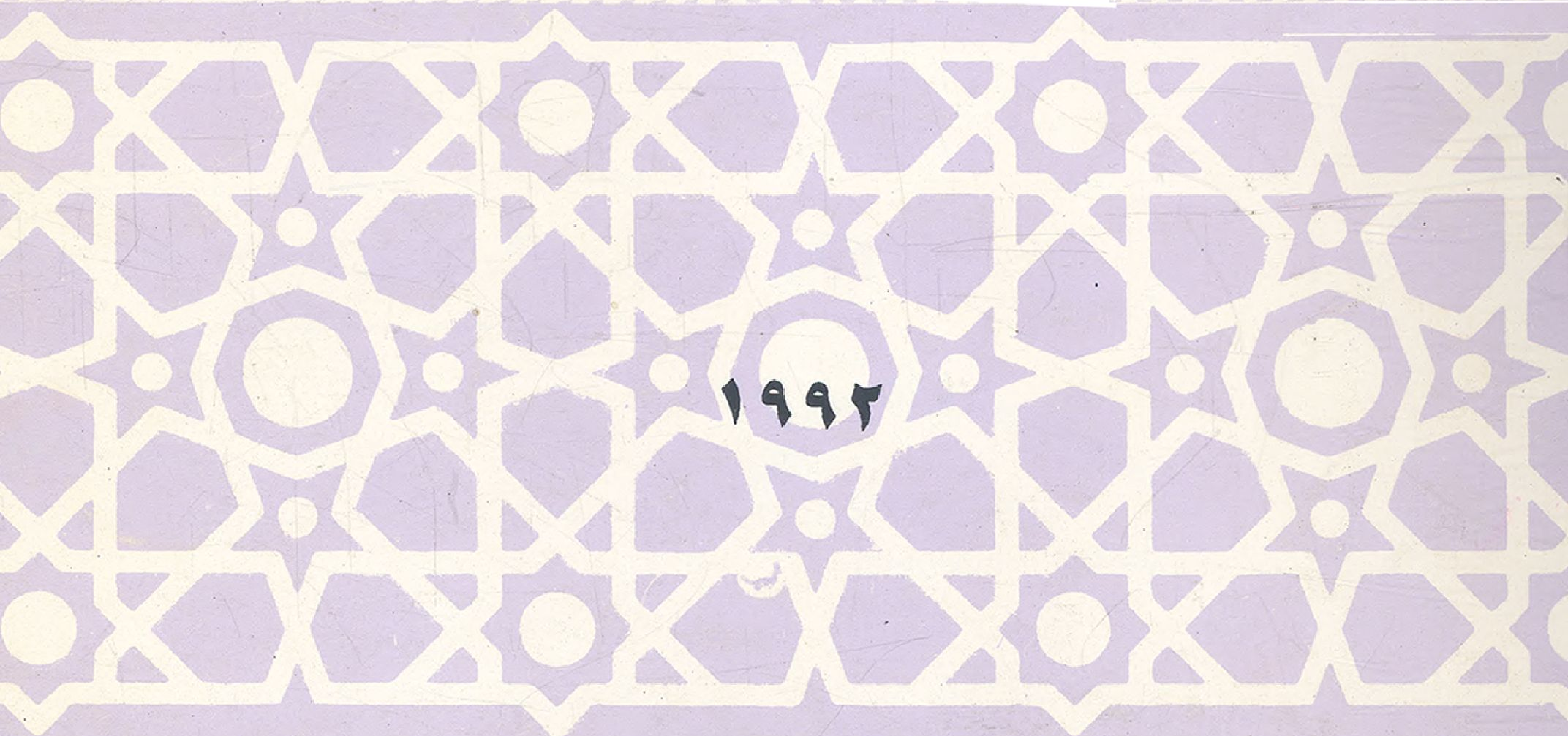
المتنبى ومصر

دكتور

فوزي محمد أمين

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية



دار المعرفة الجامعية

المتنبى ومصر

دكتور
فوزي محمد أمين
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

١٩٩٢

دار المعرفة الجامعية

ما تزال مسألة مصر فى شعر المتنبى وفى حياته يكتنفها كثير من الغموض، فمثلاً نحن لاندرى شيئا عن رحلته الأولى لمصر التى سبقت رحلته إلى «كافور» بأحد عشر عاماً حيث كانت فى حدود سنة ٣٢٥هـ، أى قبل اتصاله بسيف الدولة، وقد أشار إلى هذه الرحلة ثلاثة ممن ترجموا للمتنبى هم على الترتيب الربعى، وابن العديم، والمقريزى[١]، فماذا يا ترى كانت مقاصد هذه الرحلة وأهدافها؟!

أما رحلته الثانية وهى التى قصد فيها «كافور» فهى - على شيوعها - أشد غموضاً، وإذا أنعمنا النظر فيما شاع عن هذه الرحلة من أخبار وجدنا فيه سذاجة واضحة. إن كل ما يروى هو أن المتنبى قصد «كافور» بعد أن خرج من بلاط «سيف الدولة» مغاضبا، وكان «كافور» - فيما يقال - قد وعده بولاية زعم فريق أنها «صيدا» وزعم آخر أنها «الفيوم»[٢]، وأن «المتنبى» حين اتضح له إخلاف «كافور» فكر فى الرحيل عن مصر، لكن «كافور» منعه من ذلك بطريقة أو بأخرى، ثم كان هرب «المتنبى» من مصر فى ليلة عيد الأضحى سنة ٣٥٠هـ، وكان ما كان من ذيوع هجائه لكافور، ومن ملاحقة كافور له، وتعقبه، والتحريض عليه.

ولعل أول سؤال يطرح نفسه هو: ما رغبة «كافور» فى «المتنبى» وقد كان يعلم عنه، وعن طموحاته، وعن احتقاره لغير العرب فوق ما نعلم؟! أكان حقا حريصا على أن يزيّن بلاطه بشاعرية كشاعرية المتنبى منافسةً لخصومه؟! أبلغ به حب الشعر وأهله الحد الذى يجعله يغرس فى أرضه رجلا يعرف ما يعرف

(١) التراجم الثلاث بتحقيق الأستاذ محمد شاكر ملحقة بكتابه عن «المتنبى».
(٢) الصبح المنبى عن حيثية المتنبى. ط دار المعارف، ص ١١٢.

من أهدافه؟! أكان «كافور» على هذه الدرجة من الغفلة التى تجعله يعد المتنبى بولاية من ولايات مصر؟!

إن التاريخ يصف لنا «كافور» بأنه كان من الدهاة، وليس ما رأيناه من استقدامه للمتنبى، ووعوده له – إذا أخذنا الأمر على ظاهره – من فعل الدهاة، أما ما قيل عن رغبته فى الأدب والشعر فما نظنها بهذا الموضع الذى صوره الرواة، وما نظن «كافور» إلا صاحب ذوق أعجم، ودعك مما يقال فى تنبهه للحن فى بعض ما سمع[1]، فحتى لو صح هذا فإنه لايدل إلا على معرفة متواضعة باللغة جعلت من رآه يتنبه للحن فى دهشة من أمر هذا الأعجم الذى بدأ يفطن لأسرار العربية، ويدرك من أمرها ما لايتوقع من مثله.

ثم ما سرّ استبقاء «كافور» للمتنبى أو حبسه له فى مصر؟! أكان حقيقة يخشى هجاء المتنبى إذا رحل عنه؟! وهل هجاء الشعراء يفزع إلى هذا الحد؟! وإذا كان الهجاء يفزع العرب الأقحاح أفكان مثل كافور – وهو من عرفناه فى صلته بالعربية والعرب – يفزع منه؟! ثم إن «كافور» كان رجل سياسة عرف بالحلم والأناة، ومن كان مثله فلابد أنه يعرف أن الشعراء يمدحون ويهجون، ويقولون على الرضى وعلى الغضب، وعلى ذلك درج الساسة، ربما فرحوا للمدح، لكنهم قلما يفزعون للهجاء، فما بال فزع «كافور» من هجاء المتنبى؟!.

ومن ناحية أخرى هل كان الحبس بأى معنى من معانيه مانعا للشعراء من الهجاء؟! أو ما كان فى مقدور المتنبى أن يهجو «كافور» وهو بمصر، ويذيع هذا الهجاء بطريقة أو بأخرى؟! بل إن هذا هو ما حدث بالفعل، فأهاجى المتنبى لكافور نظمت كلها فى مصر بما فى ذلك «داليته» التى تركها له عشية

---

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى «نسخة مصورة عن دار الكتب»، جـ ٤، ص ٣.

هرويه، وعلى ذلك مضى من رووا ديوان المتنبى وفق تدرجه الزمنى[1].

إن القضية – فى نظرنا – أبعد من المديح والهجاء، بل إنها أبعد من أن تكون قضية حاكم وشاعر، وإن التاريخ لايمكن أن يكتم ريبته تجاه نوايا كافور بالمتنبى، ومن ثم نسأل: ما حقيقة هذه النوايا على وجه التحديد؟! وهل الشائعات التى كانت تتناثر فى بلاط «سيف الدولة» بين آن وآخر عن موت المتنبى لها صلة بهذه النوايا، أو هى – على الأقل – تعكس حس فريق من روّاد بلاط سيف الدولة تجاه نوايا «كافور» بالمتنبى؟! لقد كانت هذه الشائعات من القوة والذيوع إلى الحد الذى بلغت فيه سمع المتنبى نفسه، فقال أبياته الباكية:

يا من نعيت على بعد بمجلسه ∴ كل بما زعم الناعُون مُرتَهنُ

كم قد قُتِلتُ، وكم قدمِتُّ عندكمُ ∴ ثمّ انتفضتُ فزال القبر والكفن

قد كان شاهد دفنى قبل موتهم ∴ جماعةٌ، ثم ماتوا قبل من دفّنوا

ما كل ما يتمنّى المرء يدركه ∴ تأتى الرياح بما لاتشتهى السفن[2]

* * *

ومن ناحية ثانية يتملكنا العجب للمتنبى نفسه؛ ما الذى أزعجه عن بلاط سيف الدولة؟! أهو حقا مؤمرات أبى العشائر وغيره من البيت الحمدانى، وتطاول خالويه وغيره عليه فى مجالس سيف الدولة؟! أم أن كل أولئك كان وراءه خبيء يحركه، ويدفع بالمتنبى دفعا إلى حركة محسوبة مقدرة؟!

وواضح من قراءة شعر المتنبى أن «سيف الدولة» ذاته شارك فى دفع المتنبى

(١) انظر شرح ديوان أبى الطيب للمعرى وترتيبه للكافوريات، جـ٤، ط دار المعارف.

(٢) ديوان المتنبى بشرح البرقوقى، جـ٤، ص ٣٦٦، ونلفت إلى أننا اعتمدنا فى توثيق شعر المتنبى على شرح البرقوقى.

إلى هذه الحركة المحسوبة، فأظهر له الملل، وأخذ يمن عليه بعطاياه، وحاول إذلاله على نحو أو آخر، وإلى ذلك يشير المتنبى بقوله:

رأيتكم لايصون العرضَ جاركمُ ∴ ولا يَدِرُّ على مرعاكم اللبن
جزاء كلّ قريبٍ منكمُ مللٌ ∴ وحظُّ كلّ مُحبٌّ منكمُ ضغَنُ
وتغضبون على من نال رفدكمُ ∴ حتى يعاقبه التنغيصُ والمِنَنُ

ويقوله:

ولا أقيمُ على مالٍ أذلُّ به ∴ ولا ألَذُّ بما عرضى به دَرِنُ[1]

فأىّ مؤامرة تعرض لها المتنبى فى بلاط سيف الدولة؟! هل صحيح أن هذه المؤامرة كانت بسبب حب المتنبى لخولة أخت سيف الدولة، هذا الحب الذى استشفه الأستاذ شاكر من شعر المتنبى، ثم أتى عبد الغنى الملاح فجعله محور تحرش بلاط سيف الدولة بالمتنبى؟![2] قد يكون هذا واحداً من الأسباب، ولكنه ليس كلها، فالأمر – فى نظرنا – أوسع من هذا وأبعد بكثير.

وإذا قد أشرنا آنفا بإصبع الإتهام إلى نوايا «كافور»، فهل نقدر أن له يدا فيما كان يجرى فى بلاط سيف الدولة لإزعاج المتنبى عنه؟! وهل كانت هناك سياسة ما أوجبت على الخصمين المتنافسين «سيف الدولة» و «كافور» التعاون بشأن التخلص من المتنبى؟!

لقد أزعج المتنبى عن بلاط «سيف الدولة»، وشارك «سيف الدولة» فى ذلك على نحو أو آخر، هذا ما لاينبغى إنكاره، وقد بذلت للمتنبى عهود

---

(١) الديوان بشرح البرقوقى، جـ٤، ص ٢٦٧ ومابعدها.

(٢) المتنبى يسترد أباه، ص ١٣٦، ط بيروت، ويورد لأبى فراس قصيدة يقول فيها:

ألا من مبلغ سروات قومى ∴ وسيف الدولة الملك الهماما

ويرى أنها تحريض على المتنبى الذى هتك حرم العائلة الحمدانية.

ومواثيق للقدوم على كافور، وسواء صدق المتنبى كافور أو لم يصدقه فقد قدم إلى مصر لأنه لم تكن هناك سبيل أخرى أمامه، وبذلك تم استدراج المتنبى إلى دائرة الموت، فلماذا هذا كله؟!

على أننا لانستطيع أن نقطع فى كل هذه الأسئلة بإجابة شافية قبل أن نعرف هويّة المتنبى ومقاصده، ومن ثمّ فلابد أن نعود إلى الوراء شيئا ما.

* * *

والمتنبى شاعر صاحب قضية كرس لها عمره، ودفع حياته – فى النهاية – ثمنا لها، هذا ما لاشك فيه، وقد تردد فى شعره غير مرة ذكره لحق يدّعيه لنفسه، ويرى أن هناك من اغتصبه منه، لذلك فهو لايفتأ له طالبا، وبه مطالبا، يقول فى مدح علىّ بن محمد بن سيار التميمى:

سأطلب (حقى) بالقنا ومشايخ ∴ كأنهمُ من طول ما التثموا مُردُ[1]

ويقول فى إحدى مدائحه لكافور:

لنا عند هذا الدهر (حقٌ) يَلُطُّه ∴ وقد قلّ إعتابٌ، وطال عتاب[2]

ونستطيع القول: إن جميع من اتصل بهم المتنبى كانوا يعرفون هذا الحق، ويدركون دوافع المتنبى للمطالبة به، ويقدرون تضاله فى سبيله – سواء أقروا له أو لم يقروا – وإلا لكان شعره بين أيديهم مثار سخرية منه لاتنتهى.

والذى لاشك فيه أيضا أن مطالبة المتنبى بهذا الحق جعلته مستهدفا من خصوم عديدين يكيدون له الكيد بعد الكيد، وليس أدل على شعور المتنبى بهذه العدوات التى تلاحقه من قوله وهو فى سجنه:

وقيل: عدوتَ على العالمين ∴ بيَن ولادى وبين القعود[3]

فقد رأى أن هناك من يعتبر ميلاده عدوانا على العالمين ...!!

وتلفحنا أنفاس هذه العدواة التى يستشعرها المتنبى على امتداد شعره، فهو فى حرب لاتنتهى، وفى محن لاتتوقف، وفى خطوب تورثه الحزن الملازم:

كيف الرجاءُ من الخطوبِ تخلُّصًا ∴ من بعد ما أنشبن فىّ مخالبا

(١) الديوان (بشرح البرقوقى)، جـ٢، ص ٩٢.

(٢) نفسه، جـ١، ص ٣٢٣.

(٣) نفسه، جـ٢، ص ٦٩.

أوْحَدْنَنِي ووجَدْنَ حزناً واحداً ∴ متناهياً، فجعلته لى صاحبا
ونصبْنَنِي غرضَ الرماةِ تصيبنى ∴ محنٌ أحدُّ من السيوف مضاربا
أظْمتْنِيَ الدنيا فلمّا جئتها ∴ مُستَسْقِياً مطرت علىَّ مصائبا[1]

ويقول:

أذاقني زمنِي بلوى شرِقتُ بها ∴ لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا[2]

ويقول:

وقلّةِ ناصرٍ، جُوزيتَ عنّى ∴ بشرٍّ منك يا شرَّ الدهورِ
عدوّى كلُّ شيءٍ فيكَ حتى ∴ لخلتُ الأُكْمَ موغرة الصُّدُورِ[3]

ويقول:

فما لى وللدنيا، طلابى نجومُها ∴ ومسعاىَ منها فى شدوقِ الأراقم[4]

ويقول مخاطبا بدر بن عمار:

وإنْة المشيرَ عليكَ فىّ بضلّةٍ ∴ فالحرُّ ممتحن بأولاد الزّنا[5]

والشواهد لاتنتهى فى شعر المتنبى، فأى حق ذلك الذى يجر على صاحبه كل هذا البلاء؟!

وقد لفت هذا النغم الساخط الحزين فى شعر المتنبى أنظار الباحثين فراحوا يلتمسون العلل، ويتحرون الأسباب، ويحاولون إدراك سرّ هذه الثورة المكظومة التى يتأجج بها شعر المتنبى، فتباينت مسالكهم، وتشعبت آراؤهم.

---

(١) نفسه، جـ١، ص ٢٥١.
(٢) نفسه، جـ١، ص ٢٤٨.
(٣) نفسه، جـ٢، ص ٢٤٧.
(٤) نفسه، جـ٤، ص ٢٣٧.
(٥) نفسه، جـ٤، ص ٣٣٧.

وقد ذهب فريق اعتمادا على ما ورد فى شعر المتنبى من ازدراء للعجم، ومن الأنفة من تحكمهم فى الأمور، ومن وصف للدولة العباسية بأنها دولة الخدم إلى أن المتنبى كان يدعو إلى ثورة عربية هى حلقة فى سلسلة الصراع بين العرب والأعاجم بقصد السيطرة على الطرق التجارية فى شمال العراق وجنوبه، ومن ثم فهذه الثورة كانت مناوئة للقرامطة المحمولين على الأعاجم، وإلى هذا ذهب أستاذنا الدكتور عبد المحسن الحسينى. رحمه الله[1]. وإلى قريب من هذا الرأى يذهب أستاذنا الدكتور محمد محمد حسين — رحمه الله، إذ يرى أن المتنبى كان ثائراً على فساد المجتمع والحكام، ولكنه يرجح أنه نشأ فى بعض معسكرات القرامطة الذين استدرجوا والديه الفقيرين، ثمّ انشق عليهم بعد أن اطلع على مخازيهم، وامتلأت نفسه بالسخط «على المجتمع الذى عاش فيه، بكل ما فيه من فساد وظلم، سخط على الحياة اللاهية المترفة التى يحياها أصحاب الجاه والسلطان، والتى يقابلها فى الناحية الأخرى حرمان شديد وفقر مدقع ... واعتبر ذلك الفساد بكل مظاهره وألوانه مسئولا عن تسلل المذاهب الهدامة التى تختفى خلف شعارات براقة تعمل من ورائها عناصر غريبة على المسلمين وعلى العرب تريد أن تضرب الإسلام والعرب فى وقت واحد»[2].

غير أننا نرى أن فكرة الثورة العربية أو الإصلاحية فكرتان مبكرتان بالنسبة لعصر المتنبى، وبعيدتان عن مفاهيم العصر، ومنطلقاته الفكرية إذ كانت كل الدعوات آنذاك تتدثر بدثارٍ مذهبىّ، وتنضوى بشكل أو بآخر تحت لواء انتماء دينى لإمام أو معتقد، ودليلنا على ذلك كل الدعوات الثورية التى اندلعت فى العالم الإسلامى بدءاً بدعوة الخوارج، وانتهاءً بالقرامطة، وعبوراً بثورة التوابين، والثورة العباسية، وثورة الزنج بالبصرة.

(١) نقلا عن المتنبى والقرامطة، ص ٤٧، مقال بمجلة كلية الآداب — جامعة الإسكندرية ١٩٦٤.
(٢) المتنبى والقرامطة، ص ٤١ مجلة كلية الآداب — جامعة الإسكندرية ١٩٦٤.

على أن فريقا آخر من الباحثين رأى أن يضع المتنبى فى دائرة القرامطة أو قريبا منها، فذهب «بلاشير» إلى أنه كان متأثراً بالقرامطة[1]، وإلى ذلك ذهب «طه حسين» مشايعا رأى بلاشير[2].

ثم غالى بعض الباحثين إلى الحد الذى جعل «سهيل زكار» يرى أن المتنبى كان داعية اسماعيليا (والمعروف أن القرامطة جناح من أجنحة الإسماعيلية)، وأنه جاء إلى مصر فى زيارته الأولى ليتلقى تدريبا سرّياً، ثم جاء فى زيارته الثانية ليمهد للفتح الفاطمى لمصر[3].

وإزاء دعوى قرمطية المتنبى توقف «عزام» ورأى أنها دعوى يعوزها الدليل، أما أستاذنا الدكتور محمد محمد حسين فقد رجح أن المتنبى كان عدواً للقرامطة خاصة، وللباطنية على وجه العموم، وقد ساق أدلة عدة على هذا، معظمها مما يسميه المناطقة «أدلة الخلف» إذراح يقول: ليس من المعقول أن يكون قرمطيا وهو كذا وكذا ...[4] ومثل هذه الأدلة تقف عند حدود النفى، ولكنها لاتتقدم إلى إثبات.

على أننا لاننكر أن أستاذنا الدكتور محمد حسين استلهم بحسه جانباً من الحقيقة فضلا عن عدد من الأدلة له وزنه وثقله.

* * *

وقد بات معروفا أن حركة القرامطة تأسست فى الكوفة بجهود الداعية الإسماعيلى الحسين الأهوازى، وقد اتبعه من أهل الكوفة حمدان بن الأشعث

(١) أبو الطيب المتنبى (دراسة فى التاريخ الأدبى) ترجمة د. إبراهيم الكيلانى، ط دمشق، ص ٨١ ومابعدها.

(٢) مع المتنبى، ص٤٤ ومابعدها، ط دار المعارف.

(٣) الجامع فى أخبار القرامطة، ط دمشق ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، جـ١، ص ٩٠.

(٤) المتنبى والقرامطة، مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية ١٩٦٤.

وصهره «عبدان» ثم «زكرويه بن مهرويه»، وبتأثير هؤلاء انتشرت الدعوة القرمطية (الاسماعيلية) فى الكوفة، وتبعها خلق كثير ممن أرهقتهم ظروف الحياة، وظلم ولاة بنى العباس.

وفى ظروف غامضة يختفى «حمدان» و «عبدان»، وتشير أصابع الاتهام إلى «زكرويه» الذى يتولى قيادة الحركة، وينشق على البيت الفاطمى فى «سلمية»، ويرسل ولديه إلى بادية السماوة ليتزعما حركة قرمطية، ويدعيا النسب الإسماعيلى، ويهجما على البيت الفاطمى فى «سلمية»، فيمعنان قتلا وتخريبا، وهذان الشقيقان هما من عرف أحدهما بصاحب الناقة، وعرف الآخر بصاحب الخال، وقد أعلن صاحب الناقة نفسه إماما اسماعيليا، وتسمى باسم محمد بن عبد الله بن يحيى، وسك النقود باسمه، وخطب له على منابر دمشق سنة ٢٨٩هـ[١].

وقد تمكنت جيوش العباسيين من القضاء على هذين الأخويين حيث قتل أحدهما، وصلب الآخر، وتم ذلك سنة ٢٩١هـ، وكان للحمدانيين اليد الطولى فى القضاء على هذين الأخوين، ثم فى القضاء على أبيهما «زكرويه بن مهرويه» الذى خرج من بعدهما داعيا لنفسه، وقتل فى سنة ٢٩٤هـ. وبقتله أخمدت حركة القرامطة فى الكوفة[٢].

على أن جناحًا آخر من القرامطة كان قد تكوّن بالبحرين بقيادة أبى سعيد الجنابى الذى كان تلميذاً لعبدان داعى الكوفة الآنف ذكره، وقد ظلت هذه الحركة بعد أبى سعيد موالية للبيت الفاطمى إلا من جمحات يسيرة، واستمرت هذه الحركة فى أبناء أبى سعيد من بعده قوية تهدد الدولة العباسية

(١) تاريخ أخبار القرامطة، ثابت بن سنان (الجامع لأخبار القرامطة)، جـ١، ص ١٩٨.

(٢) قرامطة العراق فى القرنين الثالث والرابع الهجريين. محمد عبد الفتاح عليان، ط الهيئة المصرية ١٩٧٠، ص ١٠٢.

يعنف. الأمر الذى دفع بالدولة العباسية إلى مهادنتها، والاعتراف بها، والتعاون معها، وتقديم ما يشبه الإتاوة لها[1].

وقد فصلنا الكلام فى قرامطة الكوفة والبحرين حتى نقطع برأى بيّن فى دعوى قرمطية المتنبى، وهو أمر بالغ الأهمية فيما نحنُ بصدده.

وإذا افترضنا أن المتنبى من قرامطة الكوفة فهو فى واحد من فريقين؛ فإما أن يكون من أتباع حمدان وعبدان، وإما أن يكون من أتباع زكرويه وولديه، فإذا كان من أتباع حمدان فحرىّ به أن يكون متفقا مع قرامطة البحرين فى الهوى، وهذا ما نجد عكسه تماما لدى المتنبى؛ فإننا نحس نقمته على قرامطة البحرين حينما هجموا على الكوفة سنة ٣١٥هـ، وأسروا يوسف بن أبى الساج قائد الجيش العباسى[2]، ويتضح ذلك من أبياته التى قالها حينما ذكرت هذه الوقعة فى مجلس أبى محمد بن طغج:

أباعث كل مكرمةٍ طموح ∴ وفارس كلّ سلهبةٍ جموح
وطاعن كلّ نجلاءٍ غموس ∴ وعاصىَ كلّ عذال نصيح
سقانى الله قبل الموت يوما ∴ دم الأعداء من جوف الجروح[3]

والبيت الأخير يطفح نقمة، ورغبة فى التشفى..

بل إن المتنبى شارك بنفسه فى صد هجمة قرمطية على الكوفة إثر إفلاته من كافور، وقد كانت من قرامطة البحرين[4].

أما إذا كان من أتباع زكرويه وولديه فإن صلته بسيف الدولة ستكون

---

(١) الجامع فى أخبار القرامطة، جـ١، ص ١٥٤.

(٢) تاريخ أخبار القرامطة، ثابت بن سنان (الجامع لأخبار القرامطة، جـ١، ص ٢١٨، ٢١٩.

(٣) الديوان، جـ١، ص ٣٨١.

(٤) المتنبى، محمود محمد شاكر، السفر الأول، ص ٢٧٠.

إحدى العجائب، لأن الحمدانيين - كما سلف القول - كانت لهم اليد الطولى في القضاء على حركة زكرويه وأبنائه، وإلى هذا أشار أستاذنا الدكتور محمد حسين[1].

يبقى هناك احتمال واحد هو أن يكون المتنبى داعية اسماعيليا يعمل خارج دائرة القرامطة، ويقوم على هذا الاحتمال اعتراضان قويان يسقطانه؛

الأول: جنوح المتنبى إلى الشرق بعد إخفاقه فى مصر، ولو كان من دعاة الإسماعيلية للجأ إلى الغرب - شأن كل دعاة الاسماعيلية الذين انكشف أمرهم - حيث كانت هناك دولة فاطمية قائمة، وربما كان الجنوح إلى الغرب أيسر كثيراً.

الثاني: أن المنعم للنظر فى شعر المتنبى يشعر بنغم فردىّ، ويحس أن دعوته لنفسه لا لغيره، وشأن الداعية لغيره أن يتطامن لأنه طائع لمن هو فوقه، أما المتنبى فقد

تغرّب لا مستعظما غير نفسه ∴ ولا قابلاً إلا لخالقه حكما
ولا سالكا إلا فؤاد عجاجة ∴ ولا واجدا إلا لمكرمة طعما
يقولون لى: ما أنت فى كل بلدة ∴ وما تبتغى؟ ما أبتغى جلّ أن يسمى[2]

ولعلنا - بعد ذلك - نستطيع أن نتبيّن ما فى قول سهيل زكار من تهافت، ولاندرى من أين أتى بحكاية التدريب السرّى للمتنبى فى مصر، وعلى أى سند استند، ثم إن فى قوله خطأ تاريخيا فادحا فهو يقول: إن المتنبى عقب تلقيه هذا التدريب فى مصر سنة ٣٣٥هـ خرج إلى البادية، وأعلن

---

(١) المتنبى والقرامطة، مجلة كلية الآداب ١٩٦٤.
(٢) ديوان المتنبى بشرح البرقوقى، جـ٤، ص ٢٣٣.

ثورته، والمعروف أن ثورة المتنبى كانت قبل ذلك بأمد، إذ كانت فى حدود سنة ٣٢١هـ[١].

ثم لعلنا - أخيراً - نستطيع أن ننفى - ونحن مطمئنون - دعوى القرمطية التى التصقت بالمتنبى، ولم يكن لها أساس من صحة، أو سند من تاريخ، والتى دفعت عديدا من الباحثين إلى فهم حرفى لبعض ما ورد فى شعر المتنبى مما يشعر ظاهره باستهانة بالدين غافلين عما يعتسفه الشاعر من ضروب المجاز.

* * *

(١) انظر تحديد الأستاذ شاكر لذلك فى كتاب المتنبى، الشعر الأول ، ص ٩٣ ومابعدها.

وإذا كنا قد نفينا عن المتنبى انتماءه للإسماعيلية، والقرامطة - كما أسلفنا - جناح من أجنحتهم فإننا لاننفى علويته ولا انتماءه العلوىّ، بل لاننفى نسبه العلوىّ الذى حرص على كتمانه فوشى به شعره.

وفى مرحلة باكرة من هذا القرن ذهب شيخنا الأستاذ محمود شاكر فى كتابه عن المتنبى[1] إلى أن المتنبى علوىّ النسب، وقد توصل إلى هذا الرأى بعد رحلة طويلة فى استنطاق شعر المتنبى تدل على بصر وذوق، وبعد نقد بصير لعديد من الأخبار المتعلقة بنشأته وثورته وسجنه.

ومنذ ذلك التاريخ ودعوى علوية المتنبى تستقطب فى كل يوم أنصاراً، وتتكشف لها أدلة، لدرجة أنها أصبحت حقيقة شبه مؤكدة.

ومنذ ذلك التاريخ أيضا ظهرت كتابات وأبحاث كلها تنطلق من كشف الشيخ شاكر، وتؤسس عليه وإن كانت تحاول أن تنحاز بالمتنبى إلى فرقة أو أخرى من فرق العلويين.

ولعل أجرأ ما ظهر من هذه الكتابات ما كتبه عبد الغنى الملاح فى كتابه «المتنبي يسترد أباه»؛ إذ ذهب إلى أن المتنبى هو ابن الإمام محمد المهدى بن الحسن العسكرى الإمام الثانى عشر عند الشيعة الإمامية الذى ولد سنة ٢٥٥هـ أو ٢٥٦هـ، وبدأت غيبته الصغرى وهو ابن خمس سنوات لتستمر ٦٩ عاماً يعلَن بعدها نهاية الغيبة الصغرى وبداية الغيبة الكبرى.

وعلى هذا الافتراض يقيم الملاح عمود صورة المتنبى، ويبنى عليه ملاحقة الإمامية للمتنبى لأنهم خافوا أن يكون فى الاعتراف به تفريقًا لكلمتهم، وهدما لنظريتهم التى تقف عند الإمام الثانى عشر ولاتتعداه.

---

(١) أنظر كتاب المتنبى السفر الأول.

ويسوق الملاح أدلة عدة يدعم بها رأيه؛ منها أن الطالبيين لم يتمكنوا من اختيار نقيب لهم إلا بعد قتل المتنبى سنة ٣٥٤هـ بعد أن أمنوا عدم المطالبة بهذا الحق، ومنها أن الزبيدى صاحب تاج العروس – وهو شيعى إمامى – يلقب المتنبى بالإمام، ومنها أن فرقة النصيرية وهىَ التى ترى أن الإمامة لم تنقطع عند الإمام الثانى عشر تحتفل – كما حدثه بعض أتباعها – بمولد المتنبى، وتتواصى أجيالها بحفظ ديوانه[1].

ونحن لانجحد ما لدعوى الملاح من وجاهة، وربما يعضد رأيه اتصال المتنبى بسيف الدولة إذ المعروف أن الحمدانيين شيعة نصيرية وربما يذهب فريق من الباحثين اعتمادا على هذا إلى تفسير ما ورد فى بعض الأخبار من إدلال المتنبى على سيف الدولة، ومن اشتراطه عليه عدم القيام بين يديه. لكن إذا سلمنا بدعوى الملاح فبماذا نفسر خروج بعض الحمدانيين على المتنبى وائتمارهم به وهو إمامهم؟! وبماذا نفسر تغاضى سيف الدولة عن شجّ رأس إمامه المتنبى بمفتاح خالويه؟!

وثمة سؤال آخر يبقى حائراً دون أن يحظى بإجابة من الملاح وهو: إذا كانت الغيبة الصغرى انتهت سنة ٣٢٩هـ، ومعنى انتهائها وفاة الإمام الثانى عشر فقيم كان خروج المتنبى وثورته قبل هذا التاريخ؟! لقد خرج المتنبى فى حدود سنة ٣٢١هـ فهل خرج يدعو إلى نفسه قبل موت أبيه؟! أو أن الأب كان قد مات قبل ذلك وتكتم وكلاؤه نبأ موته؟!

على أننا نرى أن سلوك المتنبى فى إعلانه الثورة، وفى تهديده بالحرب، وفى توعده بإراقة الدم – على النحو الذى نراه فى شعره – هو أقرب لمنحى الشيعة الزيدية، فالزيدية هى التى لم تكن تعتنق مبدأ «التقية»، وهى التى كانت

(١) المتنبى يسترد أباه، دراسة فى نسب المتنبى، ط بيروت ١٩٨٠.

ترى وجوب خروج الإمام إذا اجتمعت له القوة. والمتنبى - كما رأينا - لم يتخذ التقية مسلكا فهل كان إماما زيدياً؟

ربما يعضد ذلك أن المتنبى - حين أعلن نسبه - ذكر أنه شريف حسنيّ، والثابت أن معظم أبناء الحسن انضووا تحت لواء الزيدية، وكان «النفس الزكية» الإمام الزيدى الذى دعا إلى نفسه، وقتل فى عهد أبى جعفر المنصور واحدا من أبناء الحسن، وكان معه كثير من أبناء الحسن، واصلوا الصراع ضد بنى العباس بعده، وقتل منهم خلق كثير، يشير إلى ذلك ما يقوله عبد الله بن مصعب فى رثائهم:

أضحى بنو حسن أبيح حريمهم ∴ فينا، وأصبح نهبهم متقسما
ونساؤهم فى دورهن نوائح ∴ سجع الحمام إذا الحمام ترنّما[(1)]

ولعلنا لو أخذنا بهذه الدعوى استطعنا تفسير سر تلك النقمة التى كان يغص بها شعر المتنبى على حكم بنى العباس إلى الحد الذى ينعت دولتهم بدولة الخدم، ويصف خليفتهم بأنه لحم على وضم:

□ بكل منصلت مازال منتظرى ∴ حتى أدلت له من دولة الخدم
□ أيملك الملك، والأسياف ظامئة ∴ والطير جائعة لحم على وضم[(2)]

فالزيدية لم يسلموا لبنى العباس بالخلافة، بل يرون أنهم نكثوا ببيعتهم التى أعطوها للنفس الزكية، ولقد فضلوا القتل على الإقرار بالخلافة لبنى العباس، ولاشك أن المتنبى كان على ذكر لما فعله آباء هذا آل «لحم على

(١) انظر مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصفهانى، ص ٣٠٨ وانظر من خرج على عهد أبى جعفر المنصور من بنى الحسن؛ ص ١٧٩ ومابعدها.

(٢) الديوان بشرح البرقوقى، جـ٤، ص ١٦١.

وضم» ببنى الحسن الذين هم آباؤه لو صحت دعوانا. ودعوى زبدية المتنبى تفسر لنا - أيضا - سر ذهابه لابن العميد وعضد الدولة ومدحهما فى الرىّ وشيراز، فلعله كان يرجو شيئا من وراء لقائه بهذا الجناح الزيدى من بنى بويه[1]، ونقول: الجناح الزيدى لأن بعض بنى بويه كانت لهم ميول اسماعيلية.

* * *

ومهما كان من أمر، وسواء صحت هذه الدعوى أو تلك، فلنا أن نقرر أن المتنبى كان علوى النسب، وكان منحاه فى هذه العلوية يفرض عليه عداوة أو عداوات من العلويين أنفسهم، بحيث غدا مطلوبا منهم، مترصدا، غرضا لمؤامراتهم ومكائدهم التى بدأت بسجنه، ثم بترصده فى «كفر عاقب» على النحو الذى تحدث به فى مدحه لأبى القاسم طاهر بن الحسين العلوى:

أتانى وعيد الأوعياء، وأنهم ∴ أعدوا لى السودان فى كفر عاقب

ولو صدقوا فى جدهم لحذرتهم ∴ فهل فىّ وحدى قولهم غير كاذب

بل إننا نرى المتنبى ينظر فى كثير من الارتياب لأبى القاسم نفسه، وينبئ عن ذلك تمنعه زمنا عليه، ثم غمزه له فى مدحه بالبيت

إليك فإنى لست ممن إذا اتقى ∴ عضاض الأفاعى نام فوق العقارب[2]

فالأفاعى عرفهم المتنبى واتقاهم، فمن العقارب؟ ألا يعنى هذا البيت أن أبا القاسم واحد منهم؟! وكأن المتنبى يبين له أنه ليس بغافل عن أمثاله الذين يلدغون لدغ العقرب.

وعلى أى فلم تهدأ المكائد التى لاحقت المتنبى إلا بعد أن حققت

---

(١) أنظر تاريخ الإسماعلية، د. عارف نامر ط لندن/ قبرص، جـ ١ ص ٦٨.

(٢) الديوان بشرح البرقوقى، جـ١، ص ٢٧٨.

غرضها بقتله. على أنه عاش حياته يبحث عن موطئ قدم يسيطر عليه ويجعله نقطة انطلاق، ولم يدخر جهدا في السعى من أجل تحقيق مشروعه السياسى في الثورة على بنى العباس، لكنه كانت تعوزه القوّة، ويعوزه الرجال، ومن ثمّ أخذ يتنقل بمشروعه السياسىّ من قائد إلى آخر، وهو في أثناء ذلك يحسب توازن القوى، ويحاول أن يصطنع الرجال فيغدق عليهم مدائحه حتى إذا أيس منهم قذف في وجوههم اللعنات بطريقة أو بأخرى، ولقد شغلت مصر حيزاً كبيراً من اهتمام المتنبى، فماذا كان يعلق عليها؟! وماذا كان وراء صلاته برجالها؟! وماذا كان وراء صلاتهم به؟!

* * *

وشعر المتنبى، وإن كان لدينا أعلى ذخائره وأنفسها، كان لديه – ربما – أدنى وسائله وأيسرها لبلوغ آماله وأهدافه، ولتأليف القلوب من حوله، فهو رجل كانت السياسة كل همّه، ولولا أن الشعر كان ينفس عنه بعض ما يجد، ويفتح له بعض المغالق ما ارتضى لنفسه أن يكون شاعراً، ولقد وصف حاله فى إحدى مدائحه لكافور فقال:

وبى مـا يذودُ الشـعـر عنى أقله ∴ ولكن قلبى يا ابنة الدهر قُلّبُ[1]

وربما كان أصدق وصف وصف به نفسه قوله مخاطبا كافور:

فـارم بى مـا أردت منّىَ فـإنىً ∴ أســـدُ القـلـب آدمىٌّ الرواء

وفـؤادى من الملوك وإن كـا ∴ ن لسانى يُرى من الشعـراء[2]

ومن قبل أشار الأستاذ شاكر إلى هذه السمة فى شخصية المتنبى حين قال: «أنا لا أشك، ولاتشكنّ أنت فى أن أبا الطيب قد أثار كثيراً من الجدل فى الأدب والسياسة، وتمرس بالناس، وتمرسوا به، وأخذ وأعطى، وناقش وجادل، وذهب مـذهبـا فى تناول الآراء والأفعـال والأحداث التى وقعت فى الدولة العربية»[3].

ومرة ثانية يدور حول السمة نفسها حين يتحدث عن علاقته بسيف الدولة فيقول: «إن تقديم سيف الدولة أبا الطيب على سائر شعرائه المستظلين بظله، والمبتدرين فى طاعته وخدمته لم يكن من أجل الشعر وحده وحسب بل للذى بلاه سيف الدولة من آراء أبى الطيّب وأفكاره، وعـواطفـه فى الأمـور

---

(١) الديوان بشرح البرقوقى، جـ١، ص ٣٠٤.

(٢) الديوان بشرح البرقوقى، جـ١، ص ١٥٩.

(٣) المتنبى السفر الأول، ص ١٧٤،

السياسية التى كان يسعى فى تحقيقها، وإتمامها، والقيام عليها بسيفه وخيله ورجله ورجاله المحنكين من ذوى الدهاء والخبرة والمعرفة والعلم»[1].

ومن هنا ينبغى أن نقدر خطورة أبى الطيب، وأن نتدبر تدبراً عميقا مرامى حركته، ومقاصد صلاته بالرجال فهو - فى ظننا - كان يقيم حركته على حساب دقيق، ولايخطو إلى مكان أو إلى شخص إلا على أساس من موازنة محسوبة مدروسة، وإذا كان الأمر كذلك فينبغى ألا ننظر نظرة عابرة للظهور الأول له فى الأوساط الإخشيدية بالشام، والذى كان فى حدود سنة ٣٢٩هـ واستمر بعد هذا التاريخ سبع سنوات تنتهى باتصاله بسيف الدولة سنة ٣٣٦هـ، ولعله فى أثناء ذلك دخل مصر، ومن هنا أتى خبر زورته الأولى لمصر فى سنة ٣٣٥هـ الذى رواه الربعى ثم ابن العديم ثم المقريزى.

أما ظهوره فى الأوساط الإخشيدية سنة ٣٢٩هـ فهذا ما تثبته مدائحه لمحمد بن مساور الرومى إذ مدحه بقصيدتين الأولى هى الحائية:

جللا كما بى فليك التبريح ∴ أغذاء ذا الرشأ الأغن الشيح[2]

وأما الثانية فهى الذالية:

أمساور أم قرن شمس هذا ∴ أم ليث غاب يقدم الأستاذا[3]

وهذه القصيدة الثانية هى التى تحدد لنا زمن ظهور أبى الطيب فى أوساط الإخشيديين بالشام إذ فيها يشير إلى انتصار مساور على «ابن يزداذ» بقوله:

هبك ابن يزداذ حطمت وصحبه ∴ أترى الورى أضحوا بنى يزداذا
غادرت أوجههم بحيث لقيتهم ∴ أقفاءهم وكبودهم أفلاذا

(١) المتنبى السفر الأول، ص ٢٥٧.
(٢) الديوان بشرح البرقوقى، جـ١، ص ٣٦٥.
(٣) نفسه، جـ٢، ص ١٨٥.

والمعروف أن «ابن يزداذ» هذا كان والى «حلب» من قبل ابن رائق خصم الإخشيديين، والمعروف أيضا أن المعركة التى أشار إليها المتنبى كانت لاسترداد «حلب» من ابن رائق، وكان على رأسها «كافور» «ومساور بن محمد» ممدوح المتنبى هذا، وقد جرت هذه المعركة فى حدود سنة ٣٢٩هـ[١].

ومستبعد أن يكون المتنبى قال هذه القصيدة وهو لما يزل عند بدر بن عمار إذا المعروف أن بدر بن عمار كان من رجال ابن رائق، فكيف يمدح المتنبى رجلا من خصوم بدر وهو فى حماه؟![٢].

وخلال هذه السنوات السبع التى قضاها المتنبى فى أوساط الإخشيديين بالشام اتصل بعديد من رجالهم لعل أبرزهم محمد بن سيار بن مكرم التميمى، وأبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج، والشريف طاهر بن الحسين العلوى، بل قيل: إنه اتصل بالإخشيد نفسه، ودخل مجلسه فى دمشق، ولما مات رثاه بقصيدة حفظ لنا الصبح المنبى بعض أبياتها[٣].

وقد لايهما أن نسأل كيف عقد المتنبى صلاته بالبلاط الإخشيدى ورجاله بعد الجفوة التى حدثت بسجنه على يد بعض رجال الإخشيد، لايهمنا ذلك لأن المتنبى لن يعدم الوسيلة إذا ما أراد، ولكن السؤال الحرىّ بالإجابة: ما ظهور المتنبى فى أوساط الإخشيديين فى هذا التوقيت بالذات؟! وما أهدافه من وراء هذه الصلات التى عقدها بعديد من رجالاتهم؟!

وللإجابة عن هذا لابد أن نلمح إلى أن لقاء المتنبى بسيف الدولة سنة

---

(١) الكامل لابن الأثير أحداث سنة ٣٢٩.

(٢) يرى الأستاذ شاكر أن المتنبى نظم هذه القصيدة وهو لما يزل فى طبرية بصحبة بدر بن عمار وهذا ما استبعدناه.

(٣) الصبح المنبى، ص ١١٢.

٣٣٦هـ لم يكن بداية معرفة المتنبى بسيف الدولة، فقد سبق أن تعرف المتنبى إلى سيف الدولة سنة ٣٢١هـ فى رأس عين من أرض الموصل، ومدحه إذ ذاك بقصيدة، ولنا أن نقدر أن صداقة حميمة جمعت بينهما مذ ذاك[١]، ولانستبعد أن يكون اتفاق على مشروع سياسىٍّ قد جميع بينهما، ولعل ذلك هو ما أشار إليه المتنبى بكلمة (الوعد) فى قوله:

كل عـــام أراك للروم غـــاز ∴ فمتى (الوعد) أن يكون القفول

وفى وقوف الأستاذ شاكر عند كلمة (الوعد) وتفسيرها ما يغنينا عن التوضيح[٢].

وإذا صح ذلك – وهو فى نظرنا صحيح – كان لنا ألا نستبعد أن المتنبى كان على علم بمخطط حمداني للتخلص من ابن رائق، وكان على علم – أيضا – بتوجهات سيف الدولة لإقامة دولة حمدانية فى الشام تكون منطلقا لمشروعهما السياسى المشترك. وإذن فليس من باب المصادفة أن يتخلص بنو حمدان من ابن رائق سنة ٣٣٠هـ أى عقب ظهور المتنبى فى أوساط الإخشيديين بعام واحد[٣].

ومن ناحية أخرى لم يكن خافيا على المتنبى الوضع القلق لدولة الإخشيد إذ باتت متأرجحة بين الشرق والغرب، بين الولاء لبنى العباس وبين الولاء للفاطميين، وقد فكر الإخشيد غير مرة أن يقطع الخطبة لبنى العباسى ويعلن خضوعه للفاطميين[٤]، ولو تم ذلك لكان أكبر خطر يتهدد مشروع المتنبى وصديقه سيف الدولة.

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتاب المتنبى للشيخ شاكر السفر الأول، ص ٩٣ وما بعدها.

(٢) المتنبى، السفر الأول، ص ٢٢٠.

(٣) مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٨٥.

(٤) مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٨٢.

ولم يكن خافيا على المتنبى أيضا أن دولة الإخشيد - فى الوقت الذى ظهر فيه فى أوساطها تمر بمنعطف خطير، فالإخشيد أشرف على النهاية، وتفاقم مرضه، وزادت نوبات الصرع التى تعتريه[1]، والبيت الإخشيدى بعده - إذا أزيح كافور - بيت هش فولدا الإخشيد «أنوجور» و «على» صبيّان لايقويان على شئ، وليس ثمّ إلا هذا الشاب أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج الذى لايجاوز العشرين، ومن الممكن احتواؤه.

ولابد أن المتنبى خاف أن يسبق الفاطميون للهيمنة على هذا البيت أو الإطاحة به، ومن ثم كان ظهوره فى أوساط الإخشيديين فى هذا التاريخ ليحرث الأرض ويمهدها بين يدى سيف الدولة، ولانظن أن شيئا كان يؤرق المتنبى إذ ذاك كما يؤرقه وجود «كافور».

ومن اليسير بعد ذلك أن تدرك أن الفاطميين أحسوا خطورة المتنبى، ورأوا أنه يفسد عليهم كل خططهم فى دخول مصر، ومن ثمّ حاولوا التخلص منه فأرصدوا له فى كفر عاقب، وهذا قول المتنبى:

أتانى وعيد الأوعياء وأنهم ∴ أعدوا لى السودان فى كفر عاقب

ولو صدقوا فى جدهم لحذرتهم ∴ فهل فىّ وحدى قولهم غير كاذب

ولعل البيت الثانى يشير إلى أن الفاطميين هم الذين كانوا وراء هذه المؤامرة، إذ هم المتهمون بادعاء نسبهم إلى على.

* * *

وإذ استقامت لنا الصورة على هذا النحو كان لنا أن نفهم سر اتصال أبى الطيّب بمساور الرومى، وبمحمد بن سيار التميمى، فهما قائدان من قواد

---

(١) مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٨٢.

الإخشيد مرموقان، وتألف مثل هذين القائدين أمر له خطورته، وله ضرورته فيما يعمل له أبو الطيب.

ولاشئ يستحق التوقف في مديح أبي الطيّب لمساور، إن هو إلا مديح عادى ، ربما لم يقصد أبو الطيب من ورائه سوى تألف هذا القائد واحتوائه.

أما ما قاله أبو الطيب في مديح محمد بن سيار ففيه أشياء تلفتنا، وتدفعنا إلى التوقف، ولعل أبا الطيب كان يرجو شيئا من وراء محمد هذا، فهو – فيما قيل – كان بارعا في رمى النشاب، وإلى ذلك أشار أبو الطيب بقوله:

◻ وقـــالوا: ذاك أرمى من رأينا ∴ فقلت: رأيتم الغرض القريبا[1]

◻ يريك النزع بين القـــوس منه ∴ وبين رميّه الهدف اللهيبا[2]

وإذا كان الأمر كذلك فرمية من هذا القائد كفيلة بإزاحة «كافور» ذاك الذى يقف حجر عثرة أمام المتنبى، ولانستبعد أن يكون المتنبى أوعز إلى محمد بن سيار بشئ من هذا، ففى القصيدة البائية التى مدحه بها محاولة لعطفه إلى القضية التى كرس لها المتنبى عمره، إذ يتحدث المتنبى عن معاندة الزمان له، وذنوبه التى لايحصيها عد، ولايتحدث المتنبى هذا الحديث إلا لممدوح أنس له، ورجا من ورائه شيئا، يقول:

كأن الجو قاسى ما أقاسى ∴ فصار سواده فيه شحوبا

كأن دجاه يجذبها سهادى ∴ فليس تغيب إلا أن يغيبا

أقلب فيه أجفانى كأنى ∴ أعدّ به على الدهر الذنوبا

(١) الديوان، جـ١ ، ص ٢٦٩ .

(٢) الديوان، جـ١، ص ٢٧٠ .

ثم يعرض بمقصده لصاحبه تعريضاً:

وما موت بأبعض من حياة ∴ أرى لهمُ معى فيها نصيبا

عرفت نوائب الحدثان حتى ∴ لو انتسبت لكنت بها نقيبا

ثم يحاول أن يثير فيه النخوة العربية، فيذكر له آباءه وكيف سادوا، ونالوا ما اشتهوا بالحزم، ولعل فى هذا تحريضا خفيا على كافور:

ألست ابن الألى سعدوا وسادوا ∴ ولم يلدوا امرءا إلا نجيبا

ونالوا ما اشتهوا بالحزم هونا ∴ وصادَ الوحشَ نملُهم دبيبا[1]

وإذا كان مدح المتنبى هذا لابن سيار تم فى حدود سنة ٣٣٥هـ كما قدر الأستاذ شاكر أو قبلها بقليل فيكون المتنبى قد اختار توقيتا دقيقا لعقد صلته بابن سيار، ومديحه له إذ كان هذا فى أعقاب موت الإخشيد، واستئثار «كافور» بالسلطة، ووقوفه حاميا للنظام الإخشيدى.

غير أننا نستشعر أن ابن سيار خيب رجاء المتنبى، وخذله فيما عقد عليه من آمال فى التخلص من «كافور»، ولنا أن نتوقع أن رجلا مثل «كافور» لم يكن ليغيب عنه سعى المتنبى للإطاحة به، ولابد أنه تدارك الأمر فسعى على نحو أو آخر للإيقاع بين المتنبى وصاحبه، ولابدّ — أيضا — أن المتنبى صدم فى صاحبه صدمة شديدة كانت — فيما نرى — وراء هذه الأبيات التى قذف بها فى وجه ابن سيار فى مقدمة مدحته الدالية له، إذ يشعر صاحبه أنه فى غنى عن أمثاله، وأنه إن تخاذل عنه فهناك من الأنصار من سيعيد إليه حقه، ومثل هذا القول لايبدأ به مديح:

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ ∴ كأنهم من طول ما التثموا مردُ

ثقالٌ إذا لاقوا، خفافٌ إذا دُعوا ∴ كثيرٌ إذا شَدُّوا، قليل إذا عُدُّوا

(١) انظر القصيدة كاملة بالديوان، جـ١ ، ص ٢٦٤ وما بعدها.

ثم يردف ذلك بقوله:

أذم إلى هذا الزمـــان أهيله ∴ فأعلمهم فدم، وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلب، وأبصرهم عمٍ ∴ وأسهدهم فهدٌ، وأشجعهم قرد
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ∴ عدوا له ما من صداقته بدٌّ

وهذا القول وإن اتخذ صيغة العموم فإن المقصود به – فى رأينا – ابن سيار، وهو يقلب أى مديح بعده إلى هجاء، وهب أبا الطيب مدح صاحبه بعد هذا القول بكلّ صفات الكرم والحزم والشجاعة أفلا يكون داخلا فى إطار قوله «وأكرمهم كلب» وقوله «وأعلمهم فدم» وقوله «وأشجعهم قرد» ؟!

ثم يمضى بعد ذلك ملوحا بغفلة صاحبه، وغبائه، وسماعه للخصوم فيقول:

وأكبر نفسى عن جزاء بغيبة ∴ وكل اغتياب جهد من ماله جهد
وأرحم أقواما من العيّ والغبا ∴ وأعْذِرُ فى بغضى لأنهم ضد

ثم يقذف صاحبه ببيت آخر يلوح فيه بعدم فطنته، وجواز الخديعة عليه إذ يقول:

بنفسى الذى لايزدهى بخديعة ∴ وإن كثرت فيها الذرائع والقصد[1]

والخروج من الخصوص إلى العموم أسلوب أتقنه المتنبى وتمرس به، وغالبا ما يلجأ إليه إذا أراد أن يبطن مدحه بالهجاء، أو أن يبث سخريته من وراء غلالة شفيفة من المديح.

* * *

(١) انظر القصيدة كاملة بالديوان، جـ٢، ص ١٦٩ وما بعدها.

ويتاح للمتنبى فى هذه الأثناء أن يتصل بالأمير إبى محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج، ونقدر أن هذا الاتصال بدأ بعد موت الإخشيد، ومعروف أن وفاة الإخشيد كانت فى ذى الحجة من سنة ٣٣٤ هـ(١).

وتقول الروايات: إن أبا الطيب كان يتمنع على هذا الأمير الإخشيدى وإنه لم يذهب إليه إلا بعد أن كثرت مراسلة الأمير له، وإن أبا الطيب كتب القصيدة الميمية التى مدحه بها ورسول الأمير ينتظر بالباب، وإنه خرج بها فى يده لم تجف إلى آخر ذلك مما ينمقه الرواة لإثبات تعالى المتنبى على الملوك والأمراء(٢).

ونظرة إلى مدحة المتنبى لابن طغج تثبت وهن مازيف رواة الأخبار، فليست من الشعر الذى يكتب لساعته أو يرتجل ارتجالا إنما هى نتاج إنضاج للفكر وتلقيح، ومطال للقول وتنقيح.

كذلك لايستقيم تمنع المتنبى على ابن طغج فى البداية، وملازمته له التى بلغت مخالطة تامة للأمير فى روحاته وغذواته، وفى مجالس أنسه وشرابه، والتى رأينا فيها المتنبى حريصا على إرضاء أميره ما استطاع حتى ولو كان هذا الإرضاء فى أبيات مرتجلة يلقيها بين يديه، تسجيلا لطرفة أو إثباتا لنادرة، ولو أن المتنبى ذهب إلى الأمير متمنعا كما يقول الرواة لاكتفى بالمديح ثم فارقه فراقا جميلا أو على الأقل لم يلازمه مثل هذه الملازمة.

وعندنا أن هذا اللقاء كان مخططا له من قبل أبى الطيّب أن يتم، وفى هذا الوقت بالذات، فبعد موت الإخشيد حدث ما يشبه الفتنة، وامتدت أعناق كثير من امراء البيت الإخشيدى تتطلع لخلافته، ولم يكن هناك إجماع على

---

(١) مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٩٣.

(٢) انظر مقدمة القصيدة فى شرح ديوان أبى الطيب للمعرى، جـ٢، ص ٣٩٣، وانظر كذلك الصبح المنبى، ص ٣٣٢.

ابنه «أنوجور» وربما طمح إلى خلافة الإخشيد أخوه أبو المظفر الحسن بن طغج، وربما طمح أيضا هذا الأمير الشاب الذى سعى إليه المتنبى، وقد صور ابن طباطبا هذا الصراع على خلافة الإخشيد أصدق تصوير حين قال:

مات إخشيدنا فها نحن فى ∴ أمر مريج وكل كف تمد

كلكم طالب بجد وحرص ∴ إنما الشأن أن يوافق جَدٌّ

يا ولاة الأمور إن لم تثيبوا ∴ لانتظام فقد تناثر عقد[1]

ولاشك لدينا أن المتنبى كان قد عرك كل الشخصيات الطامحة، وقد وقع اختياره على هذا الشاب الذى لم يكد يجاوز العشرين من عمره، والذى ليس لديه من الخبرة والحنكة ما يثقل جموح الشباب وحماسه، ومثل هذا الشاب قد يكون - إذا نفخ فى جذوة طموحه وجماحه - مطيّة توصل المتنبى إلى مآربه.

ثم هناك سبب آخر أقوى هو أن هذا الأمير ارتبط مع سيف الدولة بصلة مصاهرة بواقع الصلح الذى تم بين بنى حمدان والإخشيد فى ربيع الأول سنة ٣٣٤هـ، فقد تزوج سيف الدولة من أخته فاطمة، وإلى هذه المصاهرة أشار أبو فراس الحمدانى فى قوله:

فلما رأى الإخشيد ما قد أظله ∴ تلافاه يثنى غربه ويكاشر

رأى الصهر والرسل الذى هو عاقد ∴ ينال به ما لاتنال العساكر[2]

ولعل المتنبى كان يرجو من وراء اتصاله بهذا الأمير أن يحدث - على الأقل - انشقاقا فى البيت الإخشيدى يمكن سيف الدولة من اقتطاع الجزء

---

(١) المغرب لابن سعيد، ص ٥٠.

(٢) ديوان أبى فراس الحمدانى، جـ٢، ص ١١٧.

المترقى من الشام، والذى يرجح هذا لدينا ذلك التزامن بين اتصال المتنبى بهذا الأمير الإخشيدى، وبين دخول سيف الدولة دمشق عقب وفاة الإخشيد، والغريب بعد ذلك أن يعود الطرفان إلى الاتفاق القديم بعد مواجهة عسكرية سنة ٣٣٦هـ[١]، وهى السنة نفسها التى ترك فيها المتنبى أميره الإخشيدى بالرملة متجها إلى سيف الدولة، فهل معنى ذلك أنه أيس من هذا الأمير، وأن مهمته معه فشلت، أو أنه رأى أن الأمر لم يحن بعد وبخاصة فى وجود رجل يقظ قوىّ مثل كافور.

وعلى أى حال فقد أثمرت علاقة المتنبى بهذا الأمير الإخشيدى قصيدة ومجموعة من الأبيات المرتجلة، ولن نقف عند الأبيات المرتجلة فهى غالبا ما تكون من وحى اللحظة، وهى - كما أسلفنا - مقيدة بحادثة أو نادرة ولاتعنى فى النهاية إلا إرضاء الأمير والتودد له.

أما وقوفنا فسيكون مع القصيدة لما لها من أهمية فيما نحن آخذون فيه من إعادة بناء صورة هذه المرحلة من حياة المتنبى، وتبدأ القصيدة بمقطع غزلى قصير يشير فيه المتنبى إلى حاله إزاء جمال اللواتى برزن له، فشدّه ولم يدر ماذا يفعل فهو فى ذهول يفقده السيطرة على فعله وقوله، ثم يبين أن ما حل بالقلوب كأنه انتقل إلى الأيل فوقفت فى المكان لاتريد أن تبرح، ثم يشير إلى منعة ديار هؤلاء الجميلات، ورقة أجسامهن، وإلى ما يتقلدن من در يشبه أسنانهن حتى لكأن التراقى موشحة بمباسمهن:

أنا لائمى إن كنتُ وقت اللوائم ∴ علمت بما بى بين تلك المعالم[٢]
ولكننى مما شـدهت متـيم ∴ كسال، وقلبى بائح مثل كاتم

(١) مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٣٥٤.

(٢) القصيدة كاملة بالديوان، جـ٤، ص ٢٣٦ ومابعدها.

وقـفنا كـأنا كلّ وجـد قلوبنا ∴ تمكن من أذوادنا فى القـــوائم

ودسنا بأخـفــاف المطى ترابهــا ∴ فـلازلت استـشـفى بلثم المناسم

ديار اللـواتى دارهن عـــــزيزة ∴ بطولِ القنا يحفظن لا بالتـمـائم

ويبـســمن عن در تقلدن مـثله ∴ كـأن التـراقى وشحت بالمبـاسم

وما هؤلاء الجميلات اللائى برزن للشاعر إلا تجسيد لأمانيه التى تبرجت له إذ ذاك، وما هذه المنعة التى فيـهـا ديارهن – فيـمـا نظن – إلا تصـوير رامز للمخاطر التى يستشعرها ويتوقعها، ومن هنا لانجد فجوة أو نقلة حينما يقول الشاعر بعد هذه الأبيات مباشرة:

فـمـا لى وللدنيا طلابى نجومـهـا ∴ ومسعاى منها فى شـدوق الأراقم

كل ما هنالك أن الشاعر عدل عن الرمز إلى المباشرة فعبر تصريحا عما كان يعبر عنه تلميحاً.

ويمضى المتنبى – بعد ذلك – وكأنه يحدث نفسه، ولكنه – فى الواقع – يوجه القول إلى الأمير، فعدوله عن ضـمـير المتكلم إلى ضـمـير الخطاب له دلالته التى لاتخفى على قارئ، يقول:

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه ∴ إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم

وأن تـرد المـاء الـذى شـطـره دم ∴ فتسقى إذا لم يسق من لم يزاحم

ومن عـرف الأيام مـعـرفتى بهـا ∴ وبالناس روّى رمـحـه غـيـر راحم

فليس بمرحـــوم إذا ظفـــروا به ∴ ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

إذا تفاقم الظلم فالسبيل فى مواجهته ظلم مثله، ومواجهة الظلم بالظلم هى الحلم بعينه، ومن الحلم أيضـا أن تزاحـم على حـقك، وأن ترد الماء الذى امتزج بدماء المتدافعين إليه إذا لم تكن هناك وسيلة لوروده، غير المزاحـمة إليه،

وخوض الدم دونه، إن الدنيا لاتدين إلا لقوى، وإن الناس دأبهم الشر، ومن عرف الدنيا كما أعرفها وخبر الناس كما خبرتهم لم تأخذه بالناس رحمة أو شفقة، وروى من دمهم رمحه، وليس عليه فى قلتهم إثم، لأنهم إذا ظفروا به لن يرحموه.

وهذه الأبيات تحمل فلسفة المتنبى فى الحياة والناس ولاريب، ولكن ما حديث المتنبى عن فلسفته هذه لممدوحه هذا الأمير الشاب، وفى هذا التوقيت بالذات الذى تطلعت فيه عيون أمراء البيت الإخشيدى لكرسىّ الحكم؟!

ألا ترى معى أن هذه الأبيات تحمل تحريضا واضحا على المزاحمة على السلطان، وعلى ضرب المنافسين بلا رحمة؟!

ويمضى المتنبى بعد ذلك فى مديحه فى نغم عادىّ مألوف دائراً حول صفات المديح المألوفة، ولكنه بين الفينة والفينة يدس فى ثنايا القول، ما يؤجج فى أميره غرور الشباب، وما يشعره أنه هو الأعلى والأرفع، وأن من يعرفه لابد أن ينفض يديه من الناس كما ينفض المسافر زاده الجاف حينما يبلغ قصده:

كريم نفضت الناس لما بلغته ∴ كأنهم ما جفّ من زاد قادم

كذلك لاينسى المتنبى أن يشعر الأمير بأن هناك من يتعذب بحسده، وليس له من راحة إلا الموت لأن حياتهم موت متكرر لما هم فيه من عناء الحسد والذلة والخوف:

بلا الله حسّاد الأمير بحلمه ∴ وأجلسه منهم مكان العمائم

فإن لهم فى سرعة الموت راحة ∴ وإن لهم فى العيش حزّ الغلاصم

ولسنا ندرى من هم أولئك الحساد الذين يتحدث عنهم المتنبى، وفى ظننا

أن المتنبى أوهم أميره بأن له حسادا وكارهين يتمنون له من الشر ما يتمنون، ولايريدون له علوا عليهم، ولذا يدعو المتنبى لأميره أن يكبت هؤلاء الحساد، وأن يجلس منهم مكان العمائم.

وهذه القصيدة - لاشك - تدل على تمرس المتنبى بالناس، وعلى خبرته بمواطن الضعف فى النفوس، وعلى معرفته ماذا يقول، وعلى أى وتر يضرب.

ولنا أن نتخيل الآن، وقد أعطتنا هذه القصيدة بعض الإشارات والمفاتيح، لنا أن نتخيل ما كان يدور بين المتنبى وهذا الأمير فى المجالس العديدة ،التى جمعت بينهما، وفى ظننا أن المتنبى لم يفوت فرصة يوغر بها صدر هذا الأمير على كافور، مخيلا له بهاء السلطان، وعظمة الملك، مذكيا فيه حماس الشباب واندفعاهم.

وإذا كان المتنبى لم يفلح فى مسعاه لتأليب هذا الأمير الإخشيدى، فإن جهده لم يذهب أدراج الرياح، كل ما هنالك أن بذرة الشقاق التى بذرها تأخرت فى النماء، ولم تؤت بالثمرة إلا بعد فوات الأوان، إذ خرج هذا الأمير سنة ٣٥٧هـ على إجماع البيت الإخشيدى، وأخذ البيعة لنفسه بعد موت كافور، واستولى على ما كان لكافور من أموال فى الرملة[١]، ولكن هيهات!!

لقد قتل المتنبى، وعجز سيف الدولة، وبدأت مصر كلها تتذبذب لتسقط فى أيدى الفاطميين.

* * *

ومدح المتنبى فى مقامه فى الرملة الشريف أبا القاسم طاهر بن الحسن العلوى، وواضح أنه كان فى ريبة من أمر هذا الشريف، فقد تمنع عليه زمنا،

---

(١) مصر فى عصر الإخشيديين، ص ١٠١.

ولم يمدحه - فيما يقال - إلا بعد أن توسل إليه الأمير أبو محمد بن طغج، وقال له: قد كنت عزمت على أن أسألك فيّ قصيدة أخرى تعملها فاجعلها فى أبى القاسم، وضمن عنه مئات الدنانير.

وصور الرواة شدة احتفاء هذا الشريف بالمتنبى إذ أجلسه فى المرتبة التى كان قاعدا فيها، وجلس بين يديه، وقال أحد الرواة: «ما رأيت ولا سمعت فى خبر أن شاعراً أجلس الممدوح بين يديه مستمعا لمدحه غير أبى الطيّب»[1].

واحتفاء هذا الشريف العلوى بالمتنبى مثل هذا الاحتفاء دليل على أنه يعرف مكانه من الشجرة العلوية، وقبول المتنبى من ناحية أخرى أن يجلس هذا الشريف بين يديه مستمعا دليل آخر.

ومديح المتنبى لهذا الرشيف يشف - كما أسلفنا - عن كثير من الريبة، ومقدمة القصيدة تشى بكثير من النفور والكراهية، ويكفى أن المتنبى يتحدث فيها عن صباح مفقود، وليل مدلهم لا آخر له، ومقلة لاترى إلا الظلام:

أعيدوا صباحى فهو عند الكواعب ∴ وردوا رقادى فهو لحظ الحبائب[2]

فـإن نهـارى ليلة مـدلهـمـة ∴ على مقلة من بعدكم فى غياهب

بعـيـدة مـا بين الجـفـون كـأنما ∴ عقدتم أعالى كل هدب بحاجب

ثم يردف ذلك بحديث عن معاندة الدهر له، وخبث صحبته:

وأحـسب أنى لو هويت فـراقكم ∴ لفـارقته والدهر أخبث صاحب

ثم يتبع ذلك ببيته العجيب:

---

(١) انظر وصف هذا اللقاء فى الصبح المنبى، ص ٣٣٢، وانظر كذلك شرح ديوان أبى الطيب للمعرى، جـ٢، ص ٤٣٠.

(٢) انظر الديوان، جـ١، ص ٢٧٤ وما بعدها.

فياليت ما بينى وبين أحبتى ∴ من البعد ما بينى وبين المصائب

إنه يتمنى أن يكون أحبته منه فى قرب المصائب التى تلازمه ولا تريد فراقه، فهل مثل هذا يقال فى بداية مديح؟! ألا يشعر هذا البيت بأن هذا الشريف الذى اضطر المتنبى إلى القرب منه هو إحدى هذه المصائب؟!

ويأتى بعد ذلك حديث لصاحبته فيه سخرية منها، وفيه ما يشبه التهديد والوعيد:

تخوفنى دون الذى أمرت به ∴ ولم تدر أن العار شر العواقب

ولابد من يوم أغر محجل ∴ يطول استماعى بعده للنوادب

يهون على مثلى إذا رام حاجة ∴ وقوع العوالى دونها والقواضب

إليك فإنى لست ممن إذا اتقى ∴ عضاض الأفاعى نام فوق العقارب

وما نظن هذا القول إلا موجها لأبى القاسم نفسه، وربما حاول بطريقة أو بأخرى أن يرجف إلى المتنبى بما يتهدده، ولذلك يردف المتنبى ذلك بحديث كفر عاقب:

أتانى وعيد الأدعياء وأنهم ∴ أعدوا لى السودان فى كفر عاقب

ولو صدقوا فى جدهم لحذرتهم ∴ فهل فىّ وحدى قولهم غير كاذب

ونسأل: ما حديث المتنبى عن كفر عاقب إلى هذا الشريف العلوى لو لم تكن لهذا الشريف صلة به، ولو لم يكن ضالعا فى هذه المؤامرة التى ترصدت المتنبى.

ويمضى المتنبى وهو لايفتأ يغمز هذا الشريف بين الحين والحين، وهذا أسلوب عرفناه للمتنبى وألفناه، فانظر إليه يبين له الصورة المثلى التى ينبغى أن يكون عليها الشريف، وأن القرابة فعل لا قول:

إذا لم تكن نفس النسيب كأصله ∴ فماذا الذى يغنى كرام المناصب
وما قربت أشباهٌ قوم أباعد ∴ ولابعدت أشباه قوم أقارب

وانظر أيضا إلى هذه السخرية يدسها فى ثنايا المديح:

وحق له أن يسبق الناس جالسا ∴ ويدرك ما لم يدركوا غير طالب

أليس فى ذلك ما يصم بالعجز، ودنو الهمة؟! أليس فى هذا البيت ما يشعر بأن المتنبى يضع هذا الشريف ضمن طائفة من البشر يزدريهم، ويزدرى منطقهم، لفذ آمن المتنبى بالقوة، وبالسيف وسيلة لتحقيق المطالب، وقد مر بنا آنفا قوله:

وأن ترد الماء الذى شطره دم ∴ فتسقى إذا لم يسق من لم يزاحم

فما باله يجعل صاحبه ممن يسبقون الناس جالسين، ويدركون ما لم يطلبوا؟!

وفى ظننا أن ريبة المتنبى فى هذا الشريف كان لها ما يبررها، إذ كان يشعر أنّه رجل من رجال كافور، ويحدثنا التاريخ عن الشريف الحسن بن طاهر الذى كان مستشار للإخشيد، وكانت له مساعيه فى إقرار الصلح بين الإخشيديين والحمدانيين، ثم كان له مساعيه أيضا فى إقرار نظام الحكم بعد الإخشيد الذى يقضى بوصاية كافور[1].

وفى ظننا أن الحسن بن طاهر هو نفسه طاهر بن الحسن الذى مدحه المتنبى وحدث قلب فى اسمه عند بعض الرواة.

وإذا سلم لنا ذلك كان لنا أن ندرك بواعث ريبة المتنبى ونفوره من هذا الشريف.

---

(١) انظر مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٨١.

على أن هناك دوائر علوية أخرى كانت فى الرملة، ولابد أن المتنبى اتصل بهما، ومنهما قبيلة بنى الجراح، وهى قبيلة من طيئ ذات ميول علوية مناهضة للفاطميين، وقد اضطلعت - فيما بعد - بدور خطير ضد الحكم الفاطمى فى عهد الحاكم بأمر الله حينما حدثت فتنة آل المغربى، وكان من الشعراء الذين التصقوا بهذه القبيلة أبو الحسن التهامى، وكان يقتفى أثر المتنبى فى فنه، وربما فى حياته، وقد مات فى سجون الفاطميين[1] *

ونحن إذ نلمح إلى هذا فبما عرفناه من شخصية المتنبى وأهدافه، وليس بشرط - بعد ذلك - أن نقع على شعر يثبت صلة المتنبى ببنى الجراح، فلم يكن الشعر كما أشرنا كل وسائل المتنبى.

* * *

(١) انظر أخبار هذه القبيلة فى كتاب الوزير المغربى للدكتور إحسان عباس ص.٣٩، ومابعدها وكذلك فى اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا فى أخبار متفرقة.

- ٥ -

هل كان «كافور» غافلا عن كل هذا الذى يحوكه المتنبى فى الرملة وفى أوساط الإخشيديين بالشام ؟! هذا أمر مستبعد لما نعرفه من دهاء كافور، ومن تمرسه بسياسة التجسس على خصومه ومنافسيه، ولذا فنحن على ثقة من أن عيون كافور كانت متعلقة بالمتنبى ليل نهار، تنقل كل نأمة، وتسجل كل حركة، إذن فلماذا ترك «كافور» المتنبى كل هذه المدة يحوك ما يحوك، ويدبر ما يدبر ؟!

ودراسة شخصية كافور تعيننا على الإجابة عن هذا، فكافور كان يفضل أن يخنق خصومه بخيوط من حرير، كان يغدق عليهم، ويتغافل عنهم أو يشعرهم بذلك، ويصبر عليهم حتى يأمنوا ويطمئنوا، وهو فى أثناء ذلك كله يراقبهم مراقبة دقيقة، ويدس عليهم من لو استطاع شاركهم فى أحلام نومهم، وراقب ما يخامر عقولهم، وما تختلج به نفوسهم، ثم إذا حانت الفرصة تخلص منهم بطريقة هادئة، ثم تظاهر بالحزن عليهم والجزع، ولعل أقوى دليل على ذلك ما فعله بولدى الإخشيد واحداً بعد الآخر، أغدق عليهما، ومدّ لهما حبال الصبر ثم دس لهما السم، وحمل جثمانيهما فى موكب مهيب دامع إلى حيث واراهما فى ثرى القدس.

وعلى هذا فلنا أن نستشف ما كان يجرى بذهن كافور تجاه المتنبى، لقد أراد أن يحاصره فى الرملة، وأن يتمهل عليه حتى ينسج حوله خيوطه العنكبية التى لا يكون له منها خلاص إلا بالموت، وهو إذ يفعل ذلك يضرب غير عصفور بحجر، فهو أولا يتخلص من عدو خطير يريد أن يقوّض دولته، وهو ثانياً يقدم بهذا الصنيع يداً عند الفاطميين الذين يهددون دولته من الغرب، وعند القرامطة الذين يهددونها من الشرق، وعند حكام بغداد الذين يدركون تمام الإدراك نوايا المتنبى تجاههم.

ولعل «كافور» كان يقدر للمتنبى بقاء أطول فى الرملة فأرجأ التخلص منه، ولكن المتنبى يفاجئه بعزمه على الرحيل إلى بنى حمدان، لذلك لم يكن هناك بد من إعاقته عن عزمه، ووضع العقبات أمامه حتى تصل خطة «كافور» إلى غايتها.

وما نظن هذا المدعوّ «إسحق بن كيغلغ» فعل ما فعل إلا بأمر من «كافور»، وما نظن طلبه مدحة من المتنبى إلا تكئة يتكئ عليها لتعويق المتنبى، وحبسه فى دائرة النفوذ الإخشيدىّ حتى يصنع سيده ما هو صانع به.

ولاريب أن المتنبى أدرك ما هو مراد به، وأدرك أن القوم يأتمرون به، ومن هنا كان رد فعله العنيف الذى نجده فيما بين أيدينا من هجائه «لابن كيغلغ».

ولقد عهدنا المتنبى إذا أحس بالخطر قذف شعره بحمم أشبه بالحمم البركانية، وعلى قدر الخطر تكون شدة هذه الحمم وضراوتها، رأينا ذلك حينما أحس بما يحوكه له ابن كروّس عند بدر بن عمار، فقذفه بإحدى حممه قائلا:

فيا ابن كروّس يا نصفَ أعمى ∴ وإن تفخر فيا نصف البصير
تعادينا لأنا غيرُ لكن ∴ وتبغضنا لأنا غير عور
فلو كنت امرأ يهجى هجونا ∴ ولكن ضاق فتر عن مسير[1]

وربما كان خطر ابن كروّس خطراً محدوداً، فإنه لم يقصد غير إفساد علاقة المتنبى ببدر بن عمار، فما ظنك بـ «ابن كيغلغ» الذى أراد أن يلف حبل الموت حول رقبته ؟! هنا لابد أن تتحول غضبة المتنبى إلى كسف صاعقة، ولابد أن ينطلق غير عابئ مجرداً عدوه من كل معانى الرجولة

---

(١) الديوان، جـ٢، ص ٢٤٨.

والشرف والنخوة، ولابد أن يتجاوز كل حدود الحياء التى تفرض على الشعراء مسلكاً فيما يقال، وهذا ما نلحظه في هجائه لـ «ابن كيغلغ»، فاقرأ له من هذا الهجاء قوله:

يحمى ابن كيغلغ الطريق وعرسه ∴ ما بين رجليها الطريق الأعظم
أقم المسالح فوق شفر سكينة ∴ إن المنىّ بحلقتيها خضرم
وارفق بنفسك إن خلقك ناقص ∴ واستر أباك فإن أصلك مظلم
واحذر مناوأة الرجال فإنما ∴ تقوى على كمر العبيد وتقدم
وغناك مسألة، وطيشك نفخة ∴ ورضاك فيشلة، وربُّك درهم
ومن البلية عذل من لا يرعوى ∴ عن جهله، وخطاب من لا يفهم[1]

ولهجة هذا الجاء شبيهة بما نراه من لهجة المتنبى فى هجاء ضبة، ففى كليهما لم يتورع عن الفحش، وهذا التشابه ناشئ ـ فى ظننا ـ عن تشابه الموقفين، ففى كليهما أحس أنه في مواجهة خطر يستهدف حياته، وهكذا فلنا ـ منذ الآن ـ أن نقيس إحساس المتنبى بالخطر، ودرجة هذا الخطر بمدى ما نراه من إقذاع فى الهجاء، ومن لذع فى القول.

وعلى أى حال فقد أفلت «المتنبى» من حصار «ابن كيغلغ» على نحو أو آخر، واتجه إلى «دمشق» حيث استظل مدة ـ فيما يبدو بحماية أبى بكر علي بن صالح الروذبارى الكاتب، ومدحه بقصيدته الزائية:

كفرندى فرند سيفى الجراز ∴ لذة العين عدة للبرّاز[2]

وقد لا تروق هذه القصيدة لأصحاب الحس المرهف، وقد يرون فى قوافيها قلقاً، وقد يذهبون إلى أن القافية ركبت الشاعر واستعبدته، وأرغمته

---

(١) الديوان، جـ٤، ص ٢٥٣.

(٢) الديوان، جـ٢، ص ٢٨١ وما بعدها.

على بعض الألفاظ المبتذلة[1]، ولكن علينا أن نعرف أن المتنبى نظم هذه القصيدة لبعض الكتاب، والكتاب ـ إذ ذاك ـ مغرمون بغريب اللفظ، فلا بأس أن ينظم المتنبى لصاحبه ما يستهوى ذوقه على هذه القافية الغريبة العصية.

وإذا كنا الدكتور طه حسين يرى أن هذه القصيدة تحتاج إلى بعض التأمل والتفكير لما تثبته من أن المتنبى خرج عن مذهبه فى المديح الذى اقتصر على مديح العرب[2]، فإننا نرى أن ليس ثمة خروج، فالمتنبى لم يقصر مديحه فيما مضى على العرب فمن قبل مر بنا مدحه لمساور الرومى، ولأبى محمد بن طغج.

على أن ما يستحق التأمل ـ فى نظرنا ـ مطلع هذه القصيدة الغريب، وقد بتنا من طول صحبتنا للمتنبى نركز على مطالع قصائده، ونعطى لها اهتماماً خاصاً، لأنها تحمل إلينا من مشاعر المتنبى وهواجسه، وردود فعله ما لا يحمله إلينا سائر جسد القصيد إذ هو يمضى فيه على سنن مألوف مطرّق.

نقول إن ما يستحق التأمل هو مطلع هذه القصيدة، وغرابة هذا المطلع تأتى مما نراه اقتصر عليه من وصف السيف، وما نظن شاعراً آخر ـ قبل المتنبى ـ بدأ قصيدة بوصف السيف.

وفى البداية يعقد المتنبى مقارنة بينه وبين سيفه فيرى أنهما متشابهان فى الحدة والمضاء، ثم يمضى مفتخراً بسيفه، وهو بما عقده من تشابه لا يتحدث إلا عن نفسه، يقول:

---

(١) مع المتنبى، د. طه حسين، ص ١٥٧-١٥٨.

(٢) نفسه، ص ١٥٧-١٥٩.

يا مـزيل الظلام عنى، وروضى ∴ يوم شربى، ومعقلى فى البرَاز

واليمانى الذى لو اسطعت كانت ∴ مـقلتى غـمـده من الإعـزاز

إن برقى إذا برقتَ فـعـــالى ∴ وصليلى إذا صللت ارتجــازى

لـم أُحَمِّلْك مـعلماً هكذا إلا ∴ لضــرب الرقــاب والأجــواز

ولقطعى بك الحـديد عليـهـا ∴ فكلانا لجنســه اليــوم غـاز

ونسأل ما حديث السيف فى مقدمة مديح كاتب؟! أنجاوز الحقيقة إذا قلنا: إن المتنبى يلوح بالتهديد لابن صالح إن غدر أو خان؟!

ثم لعل مما يستوقفنا فى هذا الوصف قوله:

كلمـــا رمت لونه منع الناظر ∴ ... مــوجٌ كــأنه منك هازى

إنه يقول لصاحبه : لا تجهد نفسك في معرفة لون هذا السيف فإنه لن يعطيك حقيقته، وهو بهذا يهزأ منك، وإذا كنا قد أسلفنا أن المتنبى يضاهى نفسه بسيفه، وحديثه عن سيفه ليس إلا حديثاً عن نفسه، أفليس لنا أن نفهم ـ بعد هذا ـ أن المتنبى يحذر صاحبه أن يحاول معرفة ما وراءه من أهداف ومطامح لأنه لن يظفر بغير السخرية؟!

ثم يأتى بعد كل ذلك مديح المتنبى لصاحبه، فهل يكون المديح بعد ذلك إلا لوناً من ألوان العبث والسخرية؟!

* * *

- ٦ -

رحل المتنبى عن مناطق النفوذ الإخشيدى، وانتهى أخيراً إلى حلب حيث «سيف الدولة» وهو إذا لم يكن أدى مهمته كاملة فى الإطاحة بكافور، فإنه بذر بذور الانقسام فى البيت الإخشيدى، ولاريب أنه دخل مصر فى هذه الجولة، واتصل ببعض البيئات العلوية بها يمهد لجولة قادمة أو جولات.

ولم يكن كافور - كما أسلفنا - غافلا عن هذا كله، ولكنه كان يريد أن يتخلص من خصمه فى هدوء، وألا يضعه فى صورة البطل الذى قد تؤدى المواجهة الصريحة له إلى ما لا يحمد عقباه، فقد يثور له أنصار، وقد يتعاطف معه متمردون على أوضاع الأمة الإسلامية، ولكن ها هو المتنبى يفلت من الحصار، ويلتقى بصاحبه سيف الدولة، وسيكون لهذا اللقاء ما بعده، وهذا ما يخشاه كافور، ويخشاه أيضاً من يؤرقهم خطر المتنبى من فاطميين فى الغرب، ومن عباسيين فى الشرق، وقد عرفنا عن «كافور» أنه كان يهادن هؤلاء وأولئك، ويقدم الهدايا لكليهما، فهل هناك هدية يقدمها «كافور» لكلا الطرفين أغلى وأثمن من المتنبى؟!

لقد ضرب النظام الإخشيدى، وكافور من رجاله، والفاطميون من ورائه على يد المتنبى حينما اخترق الدوائر الفاطمية فى الشام داعياً لنفسه بجوار سلمية وحمص وكان ما عرفناه من سجنه، والمتنبى - إذ ذاك - لم يكن إلا فتى ناشئاً قليل التجربة والخبرة ليس له نصير من عدد أو عدة، أو يتركه الآن وقد استوى عوده، ونضجت تجربته، وأتيح له نصير قوى؟! هذا ما نستبعده، إذ لن يستريح خصوم المتنبى ولن يهدأوا حتى يتحقق لهم فيه ما أرادوا، ولابد أن تكون هناك محاولات ومحاولات لتقويض هذا الحلف الناجم، وللدس بين أطرافه.

ولم يستبعد أستاذنا الشيخ شاكر أن يكون فريق من المتسلطين في بغداد قد أوعز إلى ملك الروم بطريق أو أخرى أن يحارب سيف الدولة إنهاكاً له وشغلا عن مراميه التي يتوقعونها[1]، وقد تحقق لأرباب بغداد ما أرادوا، فقد أضعفت هذه الحروب سيف الدولة، حتى إنه آثر أخيراً مهادنة الحكام في بغداد، وأذعن لضغوطهم. ويحدثنا التاريخ عن تلك الضغوط التي مورست على سيف الدولة لمهادنة القرامطة، بل لمساعدتهم، ويأخذنا العجب حينما نرى سيف الدولة من وراء القرامطة في إحدى حملاتهم على الشام سنة ٣٥٣هـ[2].

ولنا أن نقدر أن ضغوطاً أخرى مورست على سيف الدولة للتخلص من المتنبي أو لإخراجه وتسليمه، ويبدو أن هذه الضغوط قد أتت بثمرتها المرجوة، فقد بدأ المتنبي يعلن على استحياء عن تجافي سيف الدولة، فيبدأ ملمحاً إلى أنه لم يسرق مكانه عند سيف الدولة، وإنما أخذه عن استحقاق وجدارة.:

ولم تأت الجميل إليّ سهواً ∴ ولم أظفر به منك استراقاً [3]

ثم يلجأ مرة أخرى إلى صياغة الشكوى في صورة عامة:

أهم بشيء والليل كأنها ∴ تطاردني عن كونه وأطارد
وحيداً من الخلان في كل بلدة ∴ إذا عظم المطلوب قل المساعد[4]

ثم يتحول التلميح إلى تصريح فيقول:

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتباً ∴ فداه الورى أمضى السيوف مضاربا
وما لي إذا ما اشتقت أبصرت دونه ∴ تنائف لا أشتاقها وسباسبا[5]

---

(١) المتنبي، السفر الأول، ص ٢٢٠.
(٢) الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، د. هاشم المعاضيدي، ص ٢٠، ط بغداد، سنة ١٩٧٦م.
(٣) الديوان، ج٣، ص ٤٧.
(٤) نفسه، ج١، ص ٣٩٣.
(٥) نفسه، ج١، ص ١٩٩.

ثم تأتى أخيراً قصيدته الميمية التى هى ـ فى نظرنا ـ وثيقة إدانة لسيف الدولة، وفيها يفصح عن آلامه ومعاناته:

ما لى أكتم حباً قد برى جسدى ∴ وتدعي حب سيف الدولة الأصم
إن كـان يجـمـعنا حب لغـرته ∴ فليت أنا بقـدر الحب نقـتـسم

ويشير إلى ما كان يحاوله سيف الدولة إذ ذاك من التماس المبررات الواهية لمجافاة المتنبى، والتنكر له:

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ∴ ويكره الله مـــا تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفى ∴ أنا الثـريا وذان الشـيب والهـرم

ويحاول المتنبى أن ينبه صاحبه ويفتح عينه على ما يحاك من مؤامرة:

أعيـذها نظرات منك صادقة ∴ أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفـاع أخى الدنيا بناظره ∴ إذا استـوت عنده الأنوار والظلم[1]

ولكن هيهات لقد صم صاحبه أذنيه، وأغمض عينيه، بل ربما أغرى بعض شعراء مجلسه السفهاء بالتحرش بصاحبه القديم، إذ تطاول على المتنبى شاعر يدعى السامرىّ فهجاه، وردّ عليه المتنبى بقوله:

أسـامـرىّ ضـحكة كل رائى ∴ فطنت وكنت أغبى الأغبياء

وما نظن «السامرى» هو اسم هذا الشاعر، وإنما هو ـ فى ظننا ـ لقب أطلقه عليه المتنبى، ولعل هذا الشاعر كان إحدى صنائع الفاطميين، ومن هنا وصمه المتنبى بما كان يوصم به الفاطميون.

(١) نفسه، جـ٤، ص ٨٠ وما بعدها.

ولم يقف سيف الدولة عند هذا الحد، وإنما أغرى بعض غلمانه للتحرش بالمتنبى وتخويفه، ثم كان ما كان من ترصد فتيان أبى العشائر لقتله، وما نظن أبا العشائر أو غيره يصنع هذا الصنيع دون علم سيف الدولة. وفى هذا السياق ليس بمستغرب على ابن خالويه وغيره أن يصنع ما صنع بالمتنبى، وأن يلكمه بمفتاح فيشج رأسه فى مجلس سيف الدولة، طالما أن سيف الدولة مغض عن ذلك.

ولا نستطيع أن نبرئ «كافور» من هذا الذى كان يحدث فى بلاط سيف الدولة، ولابد لنا أن نقدر أنه كان له عملاؤه وأعوانه فى بلاط الحمدانيين، وأن هؤلاء العملاء والأعوان لم يدخروا جهداً فى إزعاج المتنبى عن بلاط سيف الدولة، وفى الإيقاع به، والكيد له.

وعلى جانب آخر كانت هناك مساع من لون آخر متزامنة مع المساعى السابقة تهدف إلى استدراج المتنبى إلى مصر متدثرة بعرض مغرٍ يبذله «كافور» بمنح إحدى ولايات مصر للمتنبى، ولا ريب أن «كافور» كان يعلم أن مثل هذا الوعد سيكون له فعله فى نفس المتنبى الحالم بالحكم والسلطة.

وقد بلغت هذه المساعى على اختلافها الغاية، وقرر المتنبى الرحلة إلى مصر، ولم يكن قراره خافياً على صاحبه القديم، فقد أشار إلى ما عزم عليه فى عتابه له:

أرى النوى تقتضينى كل مرحلة ∴ لا تستقل بها الوخّادة الرسم
لئن تركت «ضميراً» عن ميامننا ∴ ليحدثن لمن ودعتهم ندم

و«ضمير» هذا جبل يكون على يمين القادم إلى مصر من الشام

ولم يحاول «سيف الدولة» أن يمنع صاحبه، وإنما تركه يواجه مصيره بعيداً عنه.

ونحن نستبعد ان يكون المتنبي خدع بوعود كافور، وإنما هي مغامرة يضرب بها التيه ضرب القمار كما يقول في بعض شعره، لقد قدم المتنبي إلى مصر وهو يعلم أنه مستدرج إلى دائرة الموت، ولم تكن نوايا «كافور» بخافية عليه، وحسبك آية على ذلك ما قذف به في وجه «كافور» في أولى مدائحه إذ يقول:

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً ∴ وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

تمنيتها لما تمنيت أن ترى ∴ صديقاً فأعيا، أو عدواً مداجياً[1]

لكأن المتنبي ـ إذن ـ يستشعر الموت، ولكنه أقدم عليه راغباً عله أن يخلصه من حياة خلت من الصديق المصافي أو العدو المداجي. وكأن المتنبي ـ أيضاً ـ يخرج «كافور» بداية من هذين القسمين، فأي شيء هو ؟! .

وحسبك ـ أيضاً ـ في هذه القصيدة أن ترى أنه يصور قدومه لكافور في صورة غزوة مسلحة، فيصف خيله، التي أوصلته إلى كافور وكأنها مقدمة على قتال وفي ذلك ما فيه من تلويح بالقوة.

ولكن بالفسطاط بحراً أزرته ∴ حياتي ونصحي والهوى والقوافيا

وجرداً مددنا بين آذانها القنا ∴ فبتن خفافاً يتبعن العواليا

تماشى بأيدٍ كلما وافت الصفا ∴ نقشن به صدر البزاة حوافيا

وتنظر من سودٍ صوادقَ في الدجى ∴ يرين بعيدات الشخوص كما هيا

وتنصب للجرس الخفي سوامعا ∴ يخلن مناجاة الضمير تناديا

تجاذب فرسان الصباح أعنّةً ∴ كأن على الأعناق منها أفاعيا

(١) الديوان، جـ٤، ص ٤١٧.

وتتوالى مدائح المتنبى لـ «كافور» ولكنها دائماً تشى بالشك، وتشعر بالريبة، فيردف قصيده الأولى بقصدة (بائية) يلفتنا منها ما يدسه فى مقدمتها من نفوره من الكذب والخداع والتمويه:

ومن هوى كلُّ من ليست مموهةً ∴ تركتُ لون مشيبى غير مخضوب
ومن هوى الصدق فى قولى وعادته ∴ رغبت عن شعر فى الرأس مكذوب(١)

وفى هذه القصيدة أيضاً يلمح إلى أنه لا يخفى عليه ما يلجأ كافور إليه من غدر، ولكنه يأتى بذلك ملفقاً بدثار من مديح، وكأنه ينفى عنه ما أراد أن يثبته وهذا أسلوب مألوف فى التعريض يقول:

ولا يروع بمغدور به أحداً ∴ ولا يفزِّعُ موفوراً بمنكوب

ويتبع ذلك بقصيدة أخرى «دالية» تشعر بمدى ما يفصل بينه وبين «كافور»، وتشير إلى وعيه أن وعود «كافور» ليس من ورائها طائل فيقول:

أود من الأيام مـــا لا توده ∴ وأشكو إليها بيننا وهى جنده
يباعدن حيا يجتمعن ووصله ∴ فكيف بحب يجتمعن وصده
أبى خلق الدنيا حبيباً تديمه ∴ فما طلبى منها حبيباً ترده(٢)

ويعود المتنبى إلى تلفيف القول مرة أخرى ملوحاً بما يستشعره من حقد كافور فيقول:

أبو المسك لا يفنى بذنبك عفوه ∴ ولكنه يفنى بعذرك حقده

فمهما تلفف به هذا القول وتدثر من معان، فحسبك أن ترى المتنبى فيه يثبت لكافور صفة الحقد، وهذا ما لا يقول به مادح

---

(١) الديوان، جـ١، ص ٢٩٣.

(١) الديوان، جـ٢، ص ١١٩.

وفى هذه القصيدة يشير إلى بعد مبتغاه من كافور واستعصائه فيقول:

فإذا نلت ما أملت منك فربما ∴ شربت بماء يعجز الطير ورده

وهذه القصائد الثلاث قالها المتنبى فى سنة ٣٤٦هـ، أى فى السنة الأولى التى قدم فيها على «كافور» وكلها تشعر بسوء الظن، والتوجس.

ولسنا ننكر ـ بعد ذلك ـ أن المتنبى أخذ يطالب كافور مستجدياً أن يحقق له ما وعده به من ضيعة أو ولاية مراوحاً القول بين التصريح والتلميح فيقول له:

فكن فى اصطناعى محسناً كمجرب ∴ يبن لك تقريب الجواد وشده
إذا كنت فى شك من السيف فابله ∴ فإما تنفّيه وإما تُعدُّه

ويقول :

أبا المسك أرجو منك نصراً على العدا ∴ وآمل عزاً يخضب البيض بالدم

ويقول:

ولو كنت أدرى كم حياتى قسمتها ∴ وصيرت ثلثيها انتظارك فاعلم

ولكنا ما نظن ذلك إلا لوناً من المخادعة لجأ إليها المتنبى مظهراً لوناً من الغفلة، أو مستغلا غفلة كافور عن فهم مرامى القول حتى يتدبر أمره.

وتمضى الأيام بالمتنبى فى مصر، ويضيق الخناق عليه شيئاً فشيئاً، ويحوطه «كافور» بالعيون ترصده أنى ذهب، ويود نفر من المخلصين أن يوعز للمتنبى أن «ابن حنزابة» جعفر بن الفرات يتعجل كافور للإجهاز عليه[1]. ونسأل ما وراء «ابن حنزابة» هو الآخر؟!

(١) الصبح المنبى، ص ١١٣، وانظر : ص ١١٥.

إنه ابن الوزير العباسى «الفضل بن الفرات» وقد كان آل الفرات ذوى ميول إسماعيلية يمالئون القرامطة، ويمهدون لهم فى بغداد، وحسبنا أن نورد هنا كلام الخليفة «المقتدر» لبعض آباء «ابن حنزابة»:

«تقول: أي شيء نصنع؟! وما هو الرأى بعد أن زعزعت أركان الدولة، وعرضتها للزوال فى الباطن بالميل مع كل عدوّ يظهر، وقد ظهر الآن مقصودك بالقبض علىّ وعلى غيرى أن تستضعف الدولة، وتقوى أعداءها لتشفى غيظك، فمن الذى سلم الناس إلى القرمطىّ غيرك لما يجمع بينكما من التشيّع والرفض»[1].

إذن فابن حنزابة صاحب ولاء فاطمى، ولعلنا لا ندهش إذا علمنا أنه هو الذى سلم مصر إلى الفاطميين سنة ٣٥٨هـ، مع أن طائفة كبيرة من الجند كانت رافضة لهذا التسليم، وكانوا يقولون: «ما بيننا وبين جوهر (جوهر الصقلى قائد الفاطميين) إلا السيف»[2].

ولعلك الآن تدرك سر عداء هذا الوزير للمتنبى، وسر استعجاله لـ «كافور» للإجهاز عليه.

ولعلك لا تستغرب بعد ذلك أن يخص المتنبى هذا الوزير بسيب من هجائه وسخريته حين يقول:

وماذا بمصر من المضحكات ∴ ولكنه ضحك كالبكا
بها نبطى من أهل السواد ∴ يدرس أنساب أهل الفلا[3]

(١) الكامل لابن الأثير، جـ٨، أحداث سنة ٣١٢هـ.
(٢) مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٣٧٠.
(٣) الديوان، جـ١، ص ١٦٧.

وفى ظننا أن كلمة «نبطىّ» عند المتنبى تساوى كلمة «قرمطىّ» ، فغالبية من انضووا تحت لواء القرامطة كانوا أنباطًا، وكان حمدان وعبدان زعيمى قرامطة الكوفة من الأنباط، بل قيل إن كلمة «القرامطة» كلمة نبطية تعنى «الباطنية» (1).

* * *

ولعلنا الآن قادرون على تصور ما كان يعانيه المتنبى فى هذا الحصار الذى فرضه عليه كافور، وفى قصيدة المتنبى عن الحمى التى نظمها سنة ٣٤٨هـ (2) نرى طرفًا من هذه المعاناة، فانظر إليه يصور حياة الاسترخاء والوحدة وضيقه بها:

أقمت بأرض مصر فلا ورائي ∴ تخب بى المطى ولا أمامى
وملنى الفراش وكان جنبى ∴ يمل لقاءه فى كل عام
قليل عائدى، سقم فؤادى ∴ كثير حاسدى صعب مرامى

ثم يشير إلى حقيقة مرضه، وهو فى هذا الجمام الذى فُرض عليه

يقول لى الطبيب: أكلت شيئًا ∴ وداؤك فى شرابك والطعام
وما فى طبّه أنى جواد ∴ أضر بجسمه طول الجمام
تعود أن يغبر فى السرايا ∴ ويدخل من قتام فى قتام
فأمسك لا يطال له فيرعى ∴ ولا هو فى العليق ولا اللجام

ويتذكر المتنبى صاحبه القديم «سيف الدولة» ، فيأسى له، ويحزن لما ضيعه هذا الصديق على نفسه، وعلى صاحبه:.

(1) الجامع لأخبار القرامطة، ص ٢٧.
(2) انظر الديوان، جـ٤، ص ٢٧٢.

فلو كان ما بى من حبيب مقنع ∴ عذرتُ، ولكن من حبيب معمم
رمى واتقى رميى ومن دون ما رمى ∴ هوى كاسر كفىّ وقوسى وأسهمى
إذ ساء فعل المرء ساءت ظنونه ∴ وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته ∴ وأصبح في ليل من الشك مظلم[1]

وتزداد معاناة المتنبى فيعنف على سيف الدولة، ويصمه بأنه غلبت عليه أخلاق اللئام، ويعجب له كيف ينبو هذه النبوة، وكان طريق المعالى أمامه ممهداً، وهل هناك عيب أخطر من نقص أولئك الذين كانت لهم القدرة على التمام:

وآنف من أخى لأبى وأمى ∴ إذا ما لم أجده من الكرام
أرى الأجداد تغلبها كثيراً ∴ على الأولاد أخلاق اللئام
ولست بقانع من كل فضل ∴ بأن أعزى إلى جد همام
عجبت لمن له قد وحد ∴ وينبو نبوة القَضِم الكهام
ومن يجد الطريق إلى المعالى ∴ فلا يذر المطىّ بلا سنام
ولم أر فى عيوب الناس عيباً ∴ كنقص القادرين على التمام

ولقد درج القارئون زمناً على أن هذه الأبيات حديث للمتنبى عن نفسه أو لنفسه، ولكنا لا نرى المقصود بها إلا سيف الدولة، فهو الذى استجاب لمساعى الدس، وغلبته على أجداده الكرام أخلاق اللئام، وهو الذى نبا نبوة الكهام، وهو الذى تخاذل وكان فى وسعه ـ من وجهة نظر المتنبى على الأقل ـ التمام، ولعلنا رأينا المتنبى كيف دار فى مدائحه لسيف الدولة حول أوصاف السيف مطابقاً بين المسمى والاسم، وها هو هنا يدور حولها أيضاً فيعجب من صاحبه الذى له قدّ وحدّ ولكنه ينبو نبوة القَضم الكهام، ثم إن هذه الأبيات

(١) الديوان، جـ٤، ص ٢٦٤.

تأتى فى سياق سوء ظن المتنبى بالدنيا والناس، وهو ما أورثته إياه تجربته مع سيف الدولة، إذ تأتى بعد قوله:

ولما صار ودّ الناس خبا ∴ جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشكّ فيمن أصطفيه ∴ لعلمى أنه بعض الأنام

وإذ نفهم هذه الأبيات من شعر المتنبى على هذا النحو، فإننا نقطع بما ذهبنا إليه مما كان بين المتنبى وسيف الدولة من اتفاق، وما ربط بينهما من مشروع سياسىّ، تخاذل عنه سيف الدولة فى النهاية، ومن هنا لا يفتأ المتنبى كلما حز به الأمر، واشتدت به الضائقة أن ينحى على صاحبه باللائمة، وبمقدار عنف ما نقرؤه من هذا اللوم تكون معاناة المتنبى، وتكون آلامه.

إن سيف الدولة فى شعر المتنبى الذى قاله فى مصر كان الحاضر الغائب أو الغائب الحاضر، وفى ظننا أن عديداً من الصفات التى مدح بها المتنبى «كافور» لم يكن المقصود بها مدح كافور بقدر ما كان المقصود وضع سيف الدولة على الطرف السالب منها، وخذ لذلك مثلا مسألة اللون التى دار حولها المتنبى فى مدحه لكافور، فستجد أنها ليست تفضيلا للسواد على البياض، وإنما هى تعريض بسيف الدولة ذلك السيد (الأبيض) الذى خذله:

إنما الجلد ملبس وابيضاض النفس ∴ .. خيرٌ من ابيضاض القباء
كرم فى شجاعة وذكاء ∴ فى بهاء وقدرة فى وفاء
من لبيض الملوك أن تبدل اللون ∴ .. بلون الأستاذ والسحناء[1]

وعلى ذلك فلم يكن المقصود مدح كافور بقدر ما كان المقصود التعريض بسيف الدولة فى قول المتنبى:

---

(١) الديوان، جـ١، ص ١٥٩.

إلى الذى تهب الدولات راحته ∴ ولا يمنّ على آثار موهوب
ولا يروع بمغـدور به أحـداً ∴ ولا يفزع موفوراً بمنكوب[1]

وهكذا «يقوم الوجه الإيجابي للمدوح باستدعاء الوجه السلبى لعدوه، فلا نكاد نطالع صورة الأول، إلا وفى مواجهتها أو على حواشيها صورة الآخر صريحة أو مضمرة» على حد تعبير الدكتور محمد فتوح أحمد[2].

ومهما كان من أمر فالمتنبى لم ييأس، ولم يستسلم، وإنما راح يتدبر أمره، ويبحث عن طريق الخلاص، وربما يكون خلاصاً من قيد كافور، وربما يكون خلاصاً من كافور نفسه، وهذا أيضاً ما نستشعره من قول المتنبى فى ختام قصيدته عن الحمى:

ألا يا ليت شعر يدى أتمسى ∴ تصـرّف فى عنان أو زمـام
وهل أرمى هواى براقصـات ∴ مـحـلاة المقـاود باللغـام
فربتما شفيت غليل صدرى ∴ بسـيـر أو قناة أو حـسـام
وضاقت خطة فخلصت منها ∴ خلاص الخمر من نسج القدام

ولكن إذا كانت نية «كافور» هى التخلص من المتنبى فلماذا أبطأ كل هذا البطء؟ ولماذا صبر عليه هذه السنوات الأربع ؟! ونرى أن هذا ربما كان راجعاً إلى طبيعة كافور فى إماتة ضحاياه إماتةً بطيئة تشفياً منهم، ورغبة فى الاستمتاع بعذابهم[3]، وربما أراد أن يجعل رحيل المتنبى عن العالم رحيلا طبيعياً، ويبدو هو غير متهم فيه، وربما أراد أن يحتفظ بالمتنبى بعض الوقت ورقة يساوم بها القرامطة والفاطميين وغيرهم، ومهما كان من أمر فقد بقى المتنبى لأن القدر كان يدخر له مغامرة أخرى.

* * *

(١) نفسه، جـ١، ص ٢٩٦.
(٢) شعر المتنبى، قراءة أخرى، ط دار المعارف، ص ٢٦
(٣) انظر ما وصف به المعرى أخلاق كافور، شرح ديوان أبى الطيب، جـ٤، ص ١٧.

ـ ٧ ـ

ولا ندرى ـ على وجه التحقيق ـ كيف اتصلت حبال أبى الطيب بـ «أبى الشجاع فاتك الرومى» رفيق «كافور» ومنافسه الألدّ، والذى أنف ـ بعد موت الإخشيد ـ أن يقيم مع كافور فى مكان واحد، أو أن يركب فى خدمته فاختار أن يقيم بالفيوم التى كانت وأعمالها إقطاعاً له.

وقيل: إن «أبا شجاع فاتكاً» اعتل لوخم بيئة الفيوم فأتى إلى مصر للعلاج، وفى مصر سمع بأبى الطيب فأراد الاتصال به.

وقيل أيضاً : إن أبا الطيب التقى مصادفة فى الصحراء بأبى شجاع فاتك، وجرت بينهما مفاوضات، فلما رجع «فاتك» إلى داره حمل إلى أبى الطيب هدية قيمتها ألف دينار، ثم أتبعها بهدايا بعدها، فاستأذن «المتنبى» «كافور» فى مدحه فأذن له، فمدحه فى التاسع من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة[1].

هذا لك ما وصل إلينا من أخبار فى بيان علاقة المتنبى بفاتك الرومى، ونحن بداية نشك فى حقيقة هذا المرض الذى أقدم «فاتكاً» إلى مصر، ونشك ثانياً فى هذه الصدفة التى جمعت المتنبى بفاتك، فأية صدفة هذه التى تجمع بين رجلين فى الصحراء؟! ثم ما هذه المفاوضات التى جرت بين المتنبى وفاتك ؟! وماذا كان موضوعها ؟!

لقد سبق أن ألمحنا إلى أن المتنبى قدم إلى مصر وهو يعلم أنه يدخل إلى دائرة الموت بقدميه، وإلى أنه كان يعلم أن هذه الرحلة مقامرة أو مغامرة، ولكن

(١) انظر: ديوان المتنبى، جـ٣، ص ٣٩٣-٣٩٤؛ وانظر : الصبح المتنبى، ص ١٢٠.

لابد لمن يقامر او يغامر ان تكون هناك بعض اوراق فى يديه، فما الأوراق التى كانت فى يد المتنبى ؟!!

وفى ظننا أن المتنبى كان على صلة ببعض القواد الإخشيديين، كما أنه كان على صلة ببعض البيئات العلوية فى مصر، وأن ذلك أتيح له منذ زورته الأولى لمصر، ولعل المتنبى كان يراهن على ذلك، وكان يريد أن يحاول محاولة أخرى فى التأليب على كافور والإطاحة به لينطلق بعد ذلك من مصر إلى تحقيق آماله الكبرى، ولعل ذلك كله كان يجول فى نفس المتنبى حينما قدم على كافور، ولعل ذلك كان وراء قوله:

وغير كثير أن يزورك راجل ∴ فيرجع ملكاً للعراقين والياً

نعم غير كثير، وغير بعيد، أن يتحقق لهذا القادم ما أراد، وأن يرجع ملكاً للعراقيين، فمن يدرى لعله ينجح فى مسعاه، ولعله يستطيع أن يقلب الموازين فيصبح الراجل الذى قدم يسعى على قدميه لا يملك عدداً ولا عدة رجلا ذا صولة ودولة، وملكاً على العراق أم الملك، وقصبة الخلافة، وفى ظننا أن المتنبى حينما نظم هذا البيت إنما كان يتكلم بلسان وعيه الباطن.

كانت فى يد المتنبى ـ إذن ـ بعض الأوراق، وفى هذا السياق لا نستبعد أن تكون صلته بفاتك صلة قديمة، بدأت ربما فى زورته الأولى، حينما كان المتنبى حريصاً على أن يوثق صلاته ببعض قوّاد الإخشيد. وفهمنا للصلة بين المتنبى وفاتك على هذا النحو هو وحده الذى يفسر لقاء الصحراء بينهما الذى ما نظنه كان لقاء واحداً، وهو وحده الذى ينبئ عن موضوع هذه المفاوضات التى جرت بينهما على غفلة من الأعين والرقباء.

وقد مدح المتنبى «فاتكاً» بقصيدة واحدة، ولكنها مليئة بالإشارات التى لا

تخفى على قارئ متأمل، ففى بدايتها يشير المتنبى إلى ما فرضه «كافور» عليه من حصار، وكأنه ينبه صاحبه إلى وجوب الحذر، وإلى إيثار التلويح على التصريح:

وإن تكن محكمات الشكل تمنعنى ∴ ظهور جَرى فلى فيهنّ تصهال[1]

ثم ينتقل مشيداً بصاحبه معرضاً بكافور:

لا يدرك المجد إلا سيّد فطن ∴ لما يشق على السادات فعّال

لا وارث جهلت يمناه ما وهبت ∴ ولا كسوب بغير السيف سئال

فمن ذلك الوارث الذى يجهل ما فى يده؟!، ومن ذلك الكسوب الذى يعتمد على وسائل أخرى غير السيف فى كسبه؟! أليس هو كافور؟! ثم انظر إلى دقة المتنبى فى وصف صاحبه بأنه سيد فطن، فهذا وصف يغنى عن كثير من القول، فمن اتسم بالفطنة لا يحتاج إلى من يفهمه ما ينبغى فعله.

ثم يمضى المتنبى وقد كاد التعريض أن يصبح تصريحاً فيقوله:

وقد أطال ثنائي طولُ لابسه ∴ إنَّ الثناء على التنبال تنبال

فمن هذا التنبال الذى مديحه تنبال مثله؟! أليس هو ـ أيضاً ـ كافور؟! لكأن المتنبى هنا يعتذر لصاحبه عما اضطرته إليه الظروف من مدح من لا يستحق المدح، فالمديح صورة للممدوح، والقبيح لن يكون مديحه ـ مهما بلغ ـ إلا قبيحاً، وهو ـ فى غايته ـ هجاء وإن تزيى بثياب الثناء والإطراء!!

ويختتم المتنبى مدحته لفاتك بحث لصاحبه، ومحاولة لدفعه إلى تنفيذ الخطة المرسومة، فيهوّن عليه المشقة، وينفخ فى عزمه، ويصغر لديه المخاطر حتى

---

(١) انظر: القصيدة كاملة، الديوان، جـ٣، ص ٣٩٤ وما بعدها.

ولو تمثلت في الموت، فيكفى أن يحقق الإنسان فى حياته ما يذكره به الناس، ومازاد على هذا القدر من الحياة فهو فضول لا قيمة له:

لولا المشقة ساد الناس كلهم ∴ الجود يفقر، والإقدام قتّال

وإنما يبلغ الإنسان طاقته ∴ ما كل ماشية بالرحل شملال

إنا لفى زمن ترك القبيح به ∴ من أكثر الناس إحسان وإجمال

ذكر الفتي عمره الثاني، وحاجته ∴ ما قاته، وفضول العيش أشغال

وما نظن أن مثل هذه الإشارات والتلميحات خفيت على «كافور»، وما نظن أن «كافور» غاب عنه ما كان يدبر له المتنبى وصاحبه، ولابد أنه تناهى إليه شيء مما كان يدور فى الصحراء بين هذين الحليفين.

ويموت «فاتك» ، وقيل إنه مات من أثر حمى أصابته، ولكن إصبع التاريخ تظل تشير بالريبة إلى «كافور»، فهذا أسلوب كافور فى الفتك بخصومه، وهذه طريقته فى العصف بكل من تسوّل له نفسه الاتصال بمن أودعهم سجونه الذهبية، وقد ذكر لنا التاريخ أطرافًا من حكايات مماثلة لكافور فيمن كان يتصل بولدى الإخشيد «أنوجور» و«علي» [(١)].

وعلى أى فقد أدرك المتنبى ـ بعد موته فاتك ـ أن آخر قلاعه فى مصر قد انهارت، وأن الورقة الرابحة التى كان يراهن عليها قد احترقت، فلا يلبث أن يغادر مصر هاربًا فى نفس السنة التى مات فيها صاحبه[(٢)].

ويظل ـ ذكر «فاتك» يفجر فى نفسه المتنبى حزنًا لا ينتهى فيرثيه فى

---

(١) يقول صاحب الصبح المنبى فيما فعله كافور بأنوجور : «ثم ملك الأمر على ابن سيده، وأمر ألا يكمله أحد من مماليك أبيه، ومن كلمه أتلفه»، ص ١١١.

(٢) المعروف أن فاتك مات سنة ٣٥٠هـ وهى السنة التى هرب فيها المتنبى.

قصائدم ثلاث، وما نظن أن راحلا آخر استأثر بهذا الحيز من الرثاء فى شعر المتنبى، والمراثى الثلاث تفيض بالحسرة، وتنبض بالألم، وتشى بما كان يؤمله المتنبى فى فاتك، وفى القصيدة الأولى التى قالها إثر خروجه من مصر ترى محاولة من المتنبى فى بدايتها أن يغالب دموعه، وأن يتجمل، ونرى نومه النافر، وليله الطويل:

الحزن يقلق والتجمل يَردَعُ ∴ والدمع بينهما عصىّ طيّع[1]
يتنازعان دموع عين مسهد ∴ هذا يجيء بها، وهذا يرجع
النوم بعد أبى شجاع نافر ∴ والليل معى، والكواكب ظلّع

ويمضى المتنبى ـ بعد ذلك متأملا حقيقة الموت فى بضعة أبيات، ينتقل بعدها إلى ذكر مآثر «فاتك»، ثم إذا به يتفجر ساخطاً على الزمان، صاباً عليه نقمته، إذ كيف يسلبه «فاتكاً» أصدق صادق، بينما يبقى «كافور» أكذب الكاذبين:

قبحاً لوجهك يا زمان فإنه ∴ وجه له من كل قبح برقع
أيموت مثل أبى شجاع فاتك ∴ ويعيش حاسده الخصى الأوكع
أيد مقطعة حوالى رأسه ∴ وقفا يصيح بها ألا من يصفع
أبقيت أكذب كاذب أبقيته ∴ وأخذت أصدق من يقول ويسمع
وتركت أنتن ريحة مذمومة ∴ وسلبت أطيب ريحة تتضوّع
فاليوم قرّ لكل وحش نافر ∴ دمه وكان كأنه يتطلع

وفى القصيدة الثانية التى يذكر فيها خروجه من مصر، يرد ذكر فاتك فنحس بأسى المتنبى على صاحبه، وإحساسه بعظمة ما فقد فيقول:

---

(١) الديوان، جـ٣، ص ١٢.

لا فاتك آخر في مصر نقصده ∴ ولا له خلف في الناس كلهم

من لا تشابه الأحياء في شيم ∴ أمسى تشابهه الأموات في الرمم

عدمته وكأني سرت أطلبه ∴ فما تزيدني الدنيا على العدم

ويحس المتنبي أنه أصبح ـ بعد صاحبه ـ وحيداً لا نصير له، إنما هي أعين تحدق به تلمع بالشماتة، وتبرق بالتشفي، فيحاول أن يلملم جرحه، ويكتم ألمه، فليست شكواه إلى شامت إلا لوناً جديداً من العذاب:

هوّن على بصرٍ ماشق منظره ∴ فإنما يقظات العين كالحلم

ولا تشك إلى خلقٍ فتشمته ∴ شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

وكن على حذرٍ للناس تستره ∴ ولا يغرك منهم ثغر مبتسم

وينظر إلى نفسه، ويسترجع ماضي حياته فيهوله ما تحمل من محن، وما واجه من أرزاء، وما ضيع من عمر فيقول:

سبحان خالق نفسي كيف لذتها ∴ فيما النفوس تراه غاية الألم

الدهر يعجب من حملي نوائبه ∴ وصبر جسمي على أحداثه الحطم

وقت يضيع، وعمر ليت مدته ∴ في غير أمته من سالف الأمم

ويدرك أخيراً أن ما يدعو إليه جاء متأخراً:

أتى الزمان بنوه في شبيبته ∴ فسرهم وأتيناه على الهرم

ويذكر المتنبي صاحبه مرة ثالثة حينما قدمت له في الكوفة تفاحة من الند عليها اسمه فيقول:

ولست بناس ولكنني ∴ يجدد لي ريحه شمّه(١)

وأيّ فتًى سلبتني المنون ∴ ولم تدر ما ولدت أمّه

ولا ما تضم إلى صدرها ∴ ولو علمت هالها ضمّه

بمصر ملوك لهم ما له ∴ ولكنهم ما لهم همّه

---

(١) الديوان، جـ٤، ص ٢٨٣.

لقد كان ألم المتنبى لموت فاتك ألماً غير محدود، وكان حزنه عليه حزناً مذيب، وما نظن أن المتنبى كان يرثى فى «فاتك» شخصاً مجسداً، وإنما كان يرثى أحلامه التى ذهبت، وآماله التى عصفت بها الرياح.

* * *

لم يرث المتنبى فاتكاً إلا بعد أن خرج من مصر، فقد كان فى هذه الأشهر التى أعقبت موت «فاتك» مشغولا بمصيره، فقد أدرك أنه مأخوذ لا محالة، وأن أمر الخلاص منه قد حسم بعد أن كشف «كافور» ما كان من أمره وأمر «فاتك» ، ولعل المتنبى فى هذه الأثناء شغله عن حزنه على «فاتك» ما راح يدبر له للمواجهة الوشيكة مع «كافور»، وقد كان أقسى شيء على نفس المتنبى أن يستسلم لمصيره هذا الذى بات يراه رأى العين، وهو الذى ما أذعن لقوة، وما خشى بأس عدو على كثرة ما لاقى فى عمره، ولقد عاش عمره يمجد الشجاعة، ويأنف من الجبن والجبناء، ولعل بعضاً من شعره في ذاك طاف بنفسه فانتفض يردد ما قاله فى صدر شبابه:

ردى حياض الردى يا نفس واتركى ∴ حياض غير الردى للشاء والنعم
إن لم أذرك على الأرماح سائلة ∴ فلا دعيت ابن أم المجد والكرم(١)

أو ما قاله بين يدى بدر بن عمار:

أنف الكريم من الدنيــة تارك ∴ فى عينه العدد الكثير قليلا
والعار مضاض وليس بخائف ∴ من حتفه من خاف مما قيلا(٢)

ولذا قرر المتنبى أن يواجه مصيره بشجاعة فإلا تنجيه الشجاعة فحسبه أن يموت ميتة الشجعان.

ونقدر أن المتنبى قال فى هذه الأثناء قصيدته النونية:

---

(١) الديوان ، جـ٤، ص ١٦٠.

(٢) الديوان، جـ٣، ص ٣٥٩.

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا ∴ وعناهم من أمره ما عنانا[1]

والمتدبر لهذه القصيدة يحس أن المتنبى فيها يرثى نفسه، وهو فى بدايتها كأنه يعزى نفسه عن إخفاقه المتتابع، ويلقى بتبعة هذا الإخفاق على الزمن، إذ هو حرب على بنى الإنسان، فمن ذا الذى لم يتول بغصة منه؟! ومن ذا الذى لم يسلبه الزمان ما وهب؟! ومن ذا الذى سره الزمان فدام له السرور، أو أحسن إليه فلم يكدر الإحسان؟!

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا ∴ وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه ∴ وإن سرّ بعضهم أحيانًا
ربما تحسن الصنيع لياليه .. ∴ ولكن تكدّر الإحسانا

وربما كان ما نحسه فى هذه الأبيات من نقمة المتنبى على الزمن صدى فجيعته فى صاحبه «فاتك» ، فهو فى ظننا السرور القصير الذى منحه الدهر، وهو الإحسان الذى عاد عليه الدهر فكدره.

وتعترى المتنبى لحظات من الضعف الإنسانى، فيخالجه شعور يمتزج فيه الأسى بالندم، فيرى أنه أعان الزمان على نفسه، وشارك فى صنع ما لحق به من مصائب، فكان كلما أنبت الزمان له قناة يحاربه بها، أعانه فركب لهذه القناة سنانًا:

وكأنا لم نرض فينا بريب الدهر .. ∴ حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة ∴ ركب المرء فى القناة سنانا

لكأن المتنبى ـ إذن ـ أعان الدهر على نفسه حينما قدم إلى مصر، وكأنه كان يعلم من البداية أنها خطة شؤم، ومع ذلك مضى فيها إلى نهايتها، وركب للقناة التى أشرعها الزمن عليه سنانًا.

---

(١) الديوان، جـ٤، ص ٣٧٠.

غير أن المتنبى سرعان ما يطرد عنه هواجس الضعف، وتنتفض فيه أنفته التى عهدناها، فيثور على واقعة، ويرفض الإذعان، فإذا كان قد قدّر عليه الموت فليكن موتاً شريفاً يليق بماضيه الشريف:

غـيـر أن الفـتى يلاقى المنايا ∴ كـالحـات ولا يلاقى الهـوانا

ولو أن الحـيـاة تبـقى لحيّ ∴ لعـددنا أضلنا الشـجـعـانا

وإذا لـم يـكـن مـن المـوت بدّ ∴ فـمن العـجز أن تكون جبـانا

ويختم المتنبى قصيدته هذه القصيرة ببيت يتجمع فيه للموت، ويهون أمر وقعه على نفسه فيقول:

كل ما لم يكن من الصعب فى الأنفس ∴ ... سهل فيها إذا هو كانا

وفى هذا البيت ما فيه سن محاولة مغالبة النوازع البشرية التى تتشبث بالحياة، وتخشى لحظة الموت.

***

ولكن المتنبى يفلت من قبضة كافور، وينجو بقراره الذى اتخذه بمواجهة الموت، وإفلات المتنبى من كافور انتصار على نحو من الأنحاء، فهو كيد يغلب كيداً، وتدبير يقـهر تدبيراً، وإنسان فرد يتغلب على صاحب دولة بما أتيح له من حرس وعسس وعيون، وحق للمتنبى أن يفخر بهذا النصر، وأن يصوره فى أزهى صوره حين يقول:

فلمـا أنخنا ركـزنا الرمـاح ∴ فـوق مكارمنا والعـلا

وبتنا نقـبل أسـيـافنا ∴ ونمسحها من دماء العدى

لتعلم مصـر ومن بالعـراق ∴ ومن بالعـواصم أنى الفـتى

وأنى وفـيت، وأنى أبيت ∴ وأنى عـتوت على من عتا

ومـا كل من قـال قـولا وفى ∴ ولا كل من سيم خسفاً أبى

ومن يك قلب كـقلبى له ∴ يشق إلى العـزّ قلب التـوى [1]

(١) الديوان، جـ١، ص ١٦٥.

لقد تم هذا الفرار الرائع فى ليلة عيد الأضحى من سنة ٣٥٠هـ، واقترن هذا الفرار بقصيدة المتنبى الدالية فى هجاء كافور:

عيد بأية حال عدت يا عيد ∴ بما مضى أم لأمر فيك تجديد؟!

وبعدها بدأ يذيع ما كان يستره المتنبى من أهجياته الأخرى التى هجا بها «كافور» فى أثناء إقامته فى مصر.

* * *

وهجاء المتنبى لكافور هجاء يغلى بالنقمة، ويشعر بعمق المأساة التى عاشها فى مصر، وما نظن أدبنا العربى عرف هجاء أقذع من هذا الهجاء فلم يبق المتنبى فى كافور شيئاً غير مجرح، ولم يبق صفة دنيئة إلا ألصقها به. فأشار إلى لؤمه، وغدره، وسخر من لونه ألواناً من السخرية، وهزىء بمنظره، وركز كثيراً على أنه «خصىّ» لا فى الرجال ولا التسوان معدود، وكل أولئك شائع معروف.

على أن ما انفرد به هجاء المتنبى لكافور عن سائر هجائه هو لهجة التحريض الواضحة، وهى إن دلت على شىء فإنما تدل على ما بلغه المتنبى من حنق على كافور.

لم يكتف المتنبي بسب كافور أو السخرية منه كما نعهد منه فى سائر هجائه، وإنما أخذ يحرّض عليه، ويؤلب على قتله، ويلجأ فى ذلك إلى فنون شتى من الإثارة، فنراه يلح إلحاحاً على أنه لا يصح أن يتولى أمر الأحرار عبد، ويعرض ذلك فى عديد من الصور:

صار الخصيّ إمام الآبقين بها ∴ فالحر مستعبد والعبد معبود
العبد ليس لحر صالح بأخ ∴ لو أنه فى ثياب الحر مولود[١]
أنوك من عبد ومن عرسه ∴ من حكم العبد على نفسه[٢]
لا شيء أقبح من فحل له ذكر ∴ تقوده أمة ليست لها رحم[٣]

ومرة أخرى تراه يشير إلى ما فى حكم «كافور» من سلب ونهب لموارد الناس:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ∴ فقد بشمن وما تفنى العناقيد[٤]

ومرة ثالثة يوضح أن قتل كافور يزيل شكوك الناس

ألا فتى يورد الهندى هامته ∴ كيما تزول شكوك الناس والتهم
فإنه حجة يؤذى القلوب بها ∴ من دينه الدهر والتعطيل والقدم[٥]

ولعل فى البيت الثانى إشارة إلى صلة كافور بالفاطميين والقرامطة، وإلى أنه صنيعة من صنائعهم، وإلا فمن هؤلاء الذين دينهم الدهر والتعطيل والقدم الذين أقاموا كافور حجة يؤذون بها القلوب؟!

وقد يرى فريق أن المتنبى هجا شعب مصر فى ثنايا هجائه لكافور، ولكنا ما نظن المتنبى قصد إلا لحفز الهمم، وتفتيح العيون لترى الحقيقة المفزعة.

ولعل هذا التحريض الذى حفل به هجاء المتنبى لكافور هو أوثق دليل نقدمه على ما ذهبنا إليه فى بيان علاقة المتنبى بكافور، وفى محاولة تقديم سياق مقبول ومعقول لرحلة المتنبى إلى مصر.

---

(١) الديوان، جـ٢، ص ١٣٩.
(٢) الديوان، جـ٢، ص ٣١١.
(٣) الديوان، جـ٤، ص ٢٨١.
(٤) الديوان، جـ٢، ص ١٣٩.
(٥) الديوان، جـ٤، ص ٢٨١.

أهم المصادر والمراجع

١ ـ أبو الطيب المتنبى «دراسة فى التاريخ الأدبى» د. ريجيس بلاشير، ترجمة إبراهيم الكيلانى، ط. دار الفكر، دمشق، ط ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥.

٢ ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تقىّ الدين المقريزى بتحقيق د. محمد حلمى أحمد، ط القاهرة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م.

٣ ـ تاريخ الإسماعيلية، د. عارف تامر، ط لندن/قبرص، ١٩٩١م.

٤ ـ الجامع فى أخبار القرامطة. د.، سهيل زكار ط. دار حسان للنشر، دمشق، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٥ ـ الحياة السياسية فى بلاد الشام خلال العصر الفاطمى، د. خاشع المعاضيدى، ط بغداد ١٩٧٦م.

٦ ـ ديوان أبى فراس الحمدانى، بتحقيق د. سامى الدهان، ط بيروت، ١٣٦٣هـ/ ١٩٤٤م.

٧ ـ ديوان المتنبى، بشرح عبد الرحمن البرقوقى، ط بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

٨ ـ رسالة فى قلب كافوريات المتنبى، حسام زادة الرومى بتحقيق محمد يوسف نجم، ط بيروت، ١٩٧٢م.

٩ ـ شرح ديوان أبى الطيبب المتنبى لأبى العلاء المعرى (معجز أحمد) بتحقيق د. عبد المجيد دياب، ط دار المعارف.

١٠ ـ شعر المتنبى، قراءة أخرى د. محمد فتوح أحمد، ط دار المعارف.

١١ ـ الصبح المنبى عن حيثية المتنبى للشيخ يوسف البديعى بتحقيق مصطفى السقا، ومحمد شتا، وعبده زيادة، ط دار المعارف.

١٢ ـ قرامطة العراق فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، د. محمد عبد الفتاح عليان ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠م.
١٣ ـ الكامل فى التاريخ لابن الأثير، ط بولاق، ١٢٩٠هـ.
١٤ ـ مصر فى عصر الإخشيديين، دكتورة سيدة إسماعيل الكاشف، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م.
١٥ ـ مع المتنبى، طه حسين، ط دار المعارف.
١٦ ـ المتنبى، محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى، القاهرة.
١٧ ـ المتنبى والقرامطة، د. محمد محمد حسين، مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، سنة ١٩٦٤م.
١٨ ـ المتنبى يسترد أباه (دراسة فى نسب المتنبى)، عبد الغنى الملاح، ط بيروت، ١٩٨٠.
١٩ ـ المغرب فى حلى المغرب، لابن سعيد المغربى، ط ليدن، ١٨٩٩م.
٢٠ ـ مقاتل الطالبيين ، لأبى الفرج الأصفهانى، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، ط دار المعرفة، بيروت.
٢١ ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبو المحاسن ، يوسف بن تغرى بردى ، ط دار الكتب، ١٣٥١هـ/١٩٣٢م.
٢٢ ـ الوزير المغربى، د. إحسان عباس، ط دار الشروق، عمان، ١٩٨٨م.
٢٣ ـ يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة، ط بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

رقم الإيداع الدولي

٨٠٠٦

I.S.B.N
977 - 273 - 132 - 0